حسن عز الدين بحر العلوم

القصة القرآنية

قصة يوسف نموذجاً

محاضرات آية الله الشيخ مصطفى الهرندي

(الجزء الأول)







القصة القرآنية

قصة يوسف ﷺ إنموذجاً



القصة القرآنية

قصة يوسف عليه السلام إنموذجاً

دراسة في المضمون والأهداف

محاضرات

آية الله الشيخ مصطفى الهرندي (دام ظله)

بقلم

حسن السيد عز الدين بحر العلوم

العارف للمطبوعات



القصة القرآنية ـ قصة يوسف ﷺ إنموذجاً

محاضرات: آية الله الشيخ مصطفى الهرندي
بقلم: حسن السيد عز الدين بحر العلوم

الطبعة الأولى
شباط/فبراير 2012
القياس: 15 × 22
عدد الصفحات: 256
الإخراج: مؤسسة المنتدى

ISBN 978-9953-574-39-4

شركة العارف للأعمال ش.م.م



بيروت ـ لبنان 452077 1 00961
العراق ـ النجف الأشرف 7801327828 00964
Website: www.alaref.net

المقدمة

تحتل القصة في القرآن الكريم مساحة واسعة، ولا نبالغ إن قلنا بأن القرآن الكريم قد تناول مواقف الماضين وقصصهم والحديث عنهم، بأسلوبه الفني الرائع، بثلث الآيات الكريمة تقريبا، فمن قصة آدم عليه السلام من حيث الخلقة، وما تعرض له من ابتلاء، وخلافة الإنسان في الأرض، وبنفس الوقت يستعرض القرآن الكريم الدور الذي قام به إبليس في انحراف مسيرة الإنسان. كذلك نمرّ على قصة أصحاب البقرة، وقصص موسى بن عمران وإبراهيم ونوح ومحمد (عليهم أفضل الصلاة والسلام)، والتفصيل في قصص عيسى بن مريم ويوسف عليه السلام وأصحاب الكهف وهكذا غيرهم وهو كثير.

وهذه الصورة تشكل لنا ظاهرة لابد من قراءتها بدقة حتى نعرف المغزى من سرد هذه القصص القرآنية، إذ لم يصنّف القرآن الكريم على أنه كتاب قصصي، وإنما هو كتاب هداية ومنهاج عمل للأمة ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾، غير أن الملاحظ في هذا المنحى أن الله سبحانه وتعالى يوظف لهذا الغرض الهداية والارتباط به سبحانه وتعالى كل وسيلة يمكن أن تساعد في تحقق ذلك فلم يتناول القرآن الكريم القصة على أنها عمل فني بحت، ولا يريد أن يكون

مؤرخاً لسلسة وقائع تاريخية، بل هو كتاب هداية يوظف لها كل ما يخدم الغرض فيستعمل أساليب متعددة منها:

١. **الأسلوب العلمي**: حيث يطرح القرآن الكريم نظرياته ويربطها بالفكر والعقل البشري للتفكر فيها، ومن ثم الانتقال للهداية قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

٢. **أسلوب الترغيب والترهيب**: نظراً لاختلاف التقبل الذهني البشري جاء هذا الأسلوب ملتئماً مع عقول كثير من الناس كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

٣. **الأسلوب الاعجازي**: هو الآخر يسهم في تهيئة أجواء الهداية، من خلال ربط المعجزة بقوة أكبر من القوة البشرية قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ * قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ * قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ * فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ * وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ * لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾.

وأسلوب القصة.. هو الآخر يصب في هذا الهدف، وهو أقرب أسلوب لكثير من الناس، لأن الإنسان مخلوق إحساسي، تؤثر فيه المشاهد، وينجذب للقصة، خصوصاً إذا عرضت بأسلوب شيق جذاب، كما نجد هذا بوضوح في الأسلوب الفني القرآني ونواحي الإبداع فيه.

لابد من استخلاص العبر من قصص القرآن الكريم، فحينما

يستعرض قصة يوسف عليه السلام في أكثر من مائة آية قرآنية يبين في فصل من فصولها افتتان امرأة عزيز مصر به، وأنها دعته إلى نفسها، حتى ورد في بعض الروايات النهي عن تعليم السورة للنساء، وإن حمل على الكراهة، فهل يريد القرآن الكريم أن ينقلنا لأجواء مثيرة ويوقعنا في انفعالات شهوية من خلال ذلك؟

لا يمكن أن ننتهي لهذه الفكرة أبداً، وإنما كانت كل فصول القصة في هذه السورة المباركة طافحة بالدروس التربوية والاجتماعية والنفسية، مليئة بالعبر، مؤثرة إلى حد كبير في مسيرة الإنسان وانفعالاته والتحكم بشهواته، ففي مقطع الافتتان يتجلى لنا أن القرآن أراد أن يعرض لنا صورة رائعة عن بلوغ العفة عند الإنسان إلى أعلى درجاتها التكاملية، وكيف تصل سيطرة العقل على الشهوات من جراء الإيمان بالله تعالى، يبين هذا بلوحة قصصية واقعية جميلة.

وهذا هدف نكتشفه من القصة القرآنية، وهناك أهداف أخرى كثيرة، يتجلى فيها أيضا الروح الأدبية التي كانت سائدة في جزيرة العرب حين نزول القرآن، لكنها كانت واضحة بالجانب الشعري عندهم، أما القصة فكانت تدور في فلك الأسطورة أحياناً، أو حياة الملوك، وقصص العرب، وغالباً ما يقتصر بنقلها على الألسن، ففاجأ القرآن الكريم أهل الاختصاص قبل غيرهم، بروعة الفن القصصي الذي يجسد الواقعية، معتمدا أساليب متنوعة فيها، بحيث أصبحت تشغل بال المهتمين أكثر من مجالات الأدب الأخرى، فانشدوا بالقرآن الكريم ونقلهم إلى أجواء الحدث، ووفر لهم كل ما يحتاجون له للدخول في أبواب الهداية والارتباط بالله سبحانه.

نعم قطعت القصة في السنين القريبة أشواطاً كبيرة من الإبداع والتنوع والاهتمام، ليس عند العرب فحسب، فتوسعت مجالاتها وتعددت أغراضها، لكن تبقى القصة القرآنية تراثاً ضخماً ومدرسةً لرواد هذا الفن، لما فيها من روح المواكبة، واستيعابها كل الأغراض التي لابد من توفرها في مجال القصة بشكل سحري مؤثر.

وهذا ما حدا بي أن أفتح هذا الباب وأدخل في روعة أسراره، وأحاديث القرآن الكريم لا تنتهي، مستعيناً بآراء سماحة آية الله استاذنا الشيخ مصطفى الهرندي (حفظه الله) كما عودنا أن يأخذ بأيدينا لعلوم معاصرة مبثوثة في منهج ماضينا وحاضرنا، فان هذا الكتاب (القصة القرآنية) ثمرة من ثمار ما استفدته من أفكاره، وجهد يضاف لجهوده السابقة، أرجو الله تعالى أن يتقبل منا ومنه ويحفظه ذخراً لأمتنا، وأدعو قراءنا الأعزاء أن يجد كتابي هذا عندهم القبول، كما لمست ذلك في مؤلفاتي السابقة، مع عهدي بهم أنهم ينتظرون كل جديد في دنيا الفكر والمعرفة، وإلى لقاء آخر بإذن الله تعالى.

حسن السيد عزالدين بحر العلوم
جمهورية العراق ـ النجف الأشرف
٢٨/ محرم الحرام/ ١٤٣٣هـ
٢٤/ ١٢/ ٢٠١١م

مدخل

الأدب هو فن الكلمة، سواء الكلمة المقروءة، والكلمة المسموعة. وهو أحد أشكال التعبير الإنساني عن مجمل عواطف وأفكار وخواطر وهواجس الإنسان بأرقى الأساليب الكتابية التي تتنوع من النثر إلى النثر المنظوم إلى الشعر الموزون لتفتح للإنسان أبواب القدرة للتعبير عما لا يمكن أن يعبر عنه بأسلوب آخر.

يرتبط الأدب ارتباطاً وثيقاً باللغة فالنتاج الحقيقي للغة المدونة والثقافة المدونة بهذه اللغة يكون محفوظاً ضمن أشكال الأدب وتجلياته والتي تتنوع باختلاف المناطق والعصور وتشهد دوماً تنوعات وتطورات مع مر العصور والأزمنة.

ولقد تغيّرت مفهومات طبيعة الأدب، ووظيفته عبر التاريخ. وقد مال بعضهم في تعريفه للأدب إلى تضييق ميدانه حين نظر إلى بعض الإنتاج الفكري دون بعضه الآخر، وفي الجانب المقابل نجد من يتوسّع في معنى الأدب حتى ليدخل في ميدانه الكتابات التشريعية والدينية والطبية، ولكنّنا نقرر: أن هناك عناصر للأدب تشكل المادة الأولية لما يطلق عليه (أدب) وهي:

أولاً: هناك العنصر العقلي، ويتمثّل في الفكرة التي يأتي بها الكاتب ليبني منها موضوعه، والتي يعبِّر عنها في عمله الفني.

ثانياً: هناك العنصر العاطفي وهو الشعور (كائناً ما كان نوعه) الذي يثيره الموضوع في نفسه، والذي يود ـ هو بدوره ـ أن يثيره فينا.

ثالثاً: هناك عنصر الخيال، وهو ـ في الحقيقة ـ القدرة على التأمّل القوي العميق.

رابعاً: وهناك عنصر آخر، هو العنصر الفنّي، أو عنصر التأليف والأسلوب.

وهذا معناه أن الأدب يقوم على عناصر بعضها بمثابة المادة (الحياة، والفكر، والخيال، والعاطفة) وبعضها يتحقّق في التكوين. أي: بناء العمل الأدبي من هذه المادة.

وقد نقرأ العمل الأدبي لأغراض كثيرة، ولكنّنا إذا نظرنا إلى الأدب على أنه قوّة حقيقية، وجب علينا أن نبحث عن مصدر الأسباب الأساسية، وهي تتمثّل في صفات: الوضوح، وعمق الفهم، وسمو الروح. ثم يأتي دور الأدب في أن يعمّق فهمنا للحياة بأن يُطلِعنا لا على عالم الرؤية الخارجي فحسب، بل على العالم الداخلي للفكر والشعور كذلك فالعمل الأدبي ليس شيئاً بسيطاً، إنّه يُستمد من الحياة، ولكنّه ليس مجرّد معنى للحياة، أو فكرة عنها نتعلمها كما نتعلم الأشياء الأخرى، أنه طاقة هائلة تشعّ ألواناً من الإشعاعات على مرّ الزمان.

إن كل ما نسبناه للعمل الأدبي من قوة كامن في الكلمات. فالأدب ـ كما سبق ـ تعبير عن الحياة، أداته اللغة، فكأنّ اللغة هي الظاهرة الأولى، التي ينبغي الوقوف عندها عندما نتحدّث عن الأدب. كما أن هناك علاقة بين الأدب والمجتمع وأن هناك تبادلاً في التأثير بين الأديب ومجتمعه في استخدام اللغة.

كما أن هناك مذاهب أدبية متميّزة لخصوصيات فيها، فهناك الأدب الكلاسيكي بوصفه: أدب العقل، والصنعة الماهرة، وجمال الشكل واتّباع الأصول الفنية القديمة للأدب.

وهناك الأدب الرومانسي بوصفه: أدب العاطفة والخيال والتحرر الوجداني، والفرار من الواقع، والتخلّص من ربقة الأصول الفنية التقليدية للأدب[١].

وهناك الاتجاه الواقعي، الذي كان ردّ فعل للرومانتيكية[٢]، كما

---

(١) غازي القصيبي ورومانسية بلا حدود: مقال منشور على الموقع الألكتروني.

(٢) عندما ينتاب الانسان نوع من الظلم ويشعر أنه مهددا وجوده، يلتفت إلى نفسه ويحاول أن يستقرىء مابداخلها لكي تبوح له بآلمها وعذابها حتى تفرغ هذا الحمل البغيض عن عاتقها وتحلم بالحرية وتحاكيها، هذا ما مثلته الرومانتيكية بأرقى صورها. كانت الثورة الفرنسية التي أندلعت عام ١٧٨٩م ثورة على الظلم والقهر التي كانت تعاني منه فرنسا والشعوب الأوربية فكانت تلك الثورة هي الخلاص الوحيد الذي أنقذ الأنسان الأوربي من غياهب الظلم والتهميش، فكان التحضير لهذه الثورة من الأمور الأساسية التي أنتجت أوربا النهضة والثورة التكنولوجية التي تشهدها أوربا إلى وقتنا الحاضر، فعمل ذوو الأقلام النبيلة التي أحست بمرارة العيش محاولة استنهاض همم الفقراء والمقهورين وذلك في مجالات مختلفة فكان الأدب والشعر له النصيب الأكبر في زرع الوعي لدى=

كانت الرومانتيكية رد فعل للكلاسيكية[١]. والواقعية تصوير الحياة كما هي، وهي تعبير عن ذلك الروح الجديد الذي سيطر على الحياة (الروح العلمي) في القرن التاسع عشر وما بعده.

وهناك التيار الرمزي الذي هو نتيجة إحساس الناس أن المذاهب التي يعبّرون بها غير كافية للتعبير، فبدءوا يبحثون عن أسلوب جديد يحل محل الواقعية، فكان المذهب الرمزي والرمزية تؤمن بعالم من الجمال المثالي، وتعتقد أن هذا العالم يتحقق بالفن، وقد يكون فهم الرموز صعباً على الآخرين، ولكنها حين تتكشّف لهم تنقل إليهم بهجة علوية لا تتحقّق بأي اسلوب آخر.

وإذا نظرنا ـ الآن ـ وجدنا أن كلمة (أدب) يندرج تحتها كثير من

=المستضعفين بضرورة الثورة على الوضع السائد حينها.فظهرت الرومانتيكية كمذهب جديد فتح نوافذ أخرى في مجال الشعر والأدب وأحدث معركة مع المذهب الكلاسيكي كونه جديد وبعيد عن التكلف والبلاغة، لأنه كان يخاطب الضمير والأحساس ولامكان للتكلف والأسراف، فنجد أن الطبيعة عند الشاعرالرومانتيكي معبداً يأوي إليه ليستجم عندما تقسوا الحياة، وأن يكن منهم من رأى في خلودها وفنائها معنى جارحاً، ولكم تغني أولئك الشعراء بجلال الألم البشري فقال (الفريد دى فيني): (إني أحب الألم البشري) وأيضا قال: (موسية): (المرء طفل معلمه الألم) وقال: (لاشيء يسمو بنا إلى العظمة كما يسمو الألم). ولقد أسرفوا في هذا الاتجاه حتى كاد إحساسهم يقرب من المرض.

(١) الكلاسيكية أو الاتباعية عصر أدبي تميز بالسعي نحو تصوير الجمال تصويراً مثالياً. وتنحصر الكلاسيكية في أديبين اثنين: جوته وشيللر. وقد كان مقر هذه الحركة مدينة فايمار. وفي الشعر العربي مثلاً تبرز قصيدة أمية بن الصلت كنموذج لشعر الاتباعي.

صور التعبير كالقصيدة والقصة والمسرحية والمقالة، وما أشبه. وهذه الصور المختلفة من التعبير الأدبي تكوّن ما يسمّى بالأنواع الأدبية، فالنوع الأدبي صورة خاصة من صور التعبير لها بواعثها وأصولها وخصائصها، ومجالها.

وقد قسّم دارسوا الأدب إلى نوعين: شعر، ونثر. يندرج تحته تقسيم فرعي لكل قسم، فليس الشعر نوعاً واحداً، وكذلك النثر.

الشعر وأنواعه:

فن الشعر من أشهر الفنون الأدبية، وأكثرها انتشاراً، وربّما كان ذلك لِقدَم عهد البشرية به. فالشعر هو الصورة التعبيرية الأدبية الأولى التي ظهرت في حياة الإنسان منذ العصور الأولى. وهذه الأقدمية التي للشعر ترجع إلى أنه كان في تلك العصور ضرورة حيوية بيولوجية[1].

والشعر ـ كما هو معروف ـ اسم جنس يندرج تحته أنواع شعرية كثيرة يختلف بعضها عن بعض. وهذا الإختلاف من شأنه أن يجعل لكل نوع صفات خاصّة ينبغي أن تتوافر فيه، وليست شرطاً في غيره. وأهم أنواعه:

١. الشعر القصصي بنوعيه: الشعر الملحمي، وشعر القصة الشعبية.

---

(١) لاحظ لذلك مفصلاً الدكتور وجيه المرسي أبولبن: المدارس الأدبية/ مقال منشور على الموقع التربوي للدكتور وجيه المرسي...

٢. الشعر المسرحي.

٣. الشعر الغناني (الوجداني) وهو يمثّل الشعر الذاتي.

النثر[١] وأنواعه:

وهو القسيم الثاني للأدب ومعتمد لغة النثر في التعبير الذي يختلف عن الشعر كونه يخلو من الموسيقى والإيقاع المنتظم وللنثر ألوان تعبيرية كثيرة أهمها:

١. المسرحية، وهي قصة تعتمد الحوار أساساً وتخلو من السرد تماماً.

٢. المقالة.

٣. الخطابة.

٤. المثل.

٥. الخاطرة.

٦. الترجمة الذاتية (السيرة الذاتية).

٧. القصة وهي أنواع:

---

(١) يتكون النثر من الكتابة التي لا تلتزم بأية هياكل رسمية خاصة (غير القواعد النحوية) أو هو كتابة غير شعرية. النثر: هو الكتابة ببساطة عن شيء دون المحاولة بالضرورة أن يكون ذلك بطريقة جميلة، أو باستخدام الكلمات الجميلة. كتابة النثر يمكن بالطبع أن تتخذ شكلاً جميلاً ليس بفضل الميزات البلاغية التجميلية للكلمات (القوافي، الجناس) ولكن بدلاً من ذلك استخدام النمط، والتنسيب، أو إدراج الرسومات. هناك منطقة واحدة من التداخل هي "شعر النثر" والذي يحاول أن ينقل المعلومة و الفكرة باستخدام النثر فقط مع إثراء الجمالية النموذجية للشعر.

أ. الرواية، وهي أكبر الأنواع القصصية من حيث الحجم، وهي ترتبط بالنزعة الرومانتيكية والفرار من الواقع، وتصوير البطولة الخيالية وفيها تكون الأهمية للوقائع والأحداث.

ب. القصة، فن من فنون الأدب الجليلة، يقصد لها ترويح النفس باللهو المباح، وتثقيف العقل بالحكمة، وهذا الفن من الفنون التي احتلت مكاناً، مرموقاً في النفوس، للمتعة التي يحس بها القارئ، ويتذوقها السامع، باختلاف العصور، وتنوع الأعمال، وتباين البيئات، كما أنه يعد شكلاً من أشكال التعبير، وسيلته النثر، ويعتبر من أعرق ألوان الأدب تاريخاً ووجوداً، لأن دافع السرد القصصي خاصية إنسانية يشترك فيها جميع الناس، إذ يستطيع كل إنسان أن يحكي لك حادثة مرت له، أو موقفاً تعرض له...[1].

وسنتحدث عنها لاحقاً.

جـ. القصة القصيرة، وهي تختلف ـ بصفة أساسية ـ عن القصة بوحدة الإنطباع، ويمكن أن نلاحظ أن القصة القصيرة ـ غالباً ما ـ تحقّق الوحدات الثلاث، فهي تمثّل حدثاً واحداً في وقت واحد، وتتناول القصة القصيرة شخصية مفردة أو حادثة مفردة أو عاطفة، أو مجموعة من العواطف التي أثارها موقف مفرد.

د. الأقصوصة. أي: القصّة القصيرة جداً. وأغلب ما يدور هذا

---

(١) الدكتور فاضل والي: جذور القصة في الأدب العربي/ بحث منشور على الموقع الألكتروني .www.adabihail.com

النوع حول مشهد صغير، أو فكرة جزئية، أو مجرّد الفكاهة، أو اللمسة النفسية.

وسنتحدث عن القصة، والقصة القرآنية، وقصة يوسف نموذجاً للقصة القرآنية بأسلوبها، وأهدافها، وفلسفتها في الصفحات التالية إن شاء الله تعالى[1].

---

(١) الأدب لدى العرب: لا يكاد الباحث يجد أي نص في العصر الجاهلي يستخدم كلمة (أدب)، وكل ما يجده هو لفظة (آدِب) بمعنى الداعي إلى الطعام، قال طرفة: نحن في المشتاة ندعو الجفلى *** لا ترى الآدب فينا يَنْتَقِرْ.
وفي العصر الإسلامي يرد فعل (أدّب) بمعنى (هذّب)، في حديث النبي(ص) (أدّبني ربي فأحسن تأديبي)، ويرى بعضهم أن معنىً تهذيبياً خلقياً كهذا ربما كان شائعاً في العصر الجاهلي، ولكن ليس ثمة نصوص تؤيد هذا الرأي. ويبدو أن المجاز قد ساعد في انتقال دلالة الكلمة من المعنى الحسي وهو الدعوة إلى الطعام إلى المعنى الذهني وهو الدعوة إلى المكارم.
ويُداخل الكلمة في العصر الأموي، معنى جديد، إلى جانب معناها التهذيبي الخلقي هو المعنى التعليمي، فتستخدم في الإشارة إلى (المؤدِّبين) وهم نفر من المعلمين كانوا يلقنون أولاد الخلفاء الشعر والخُطب واللغة وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام.
وقد استمر الجمع بين معنيي التهذيب والتعليم في العصر العباسي كما يلاحظ في كتاب (الأدب الكبير والأدب الصغير) لابن المقفع. و(باب الأدب) من (ديوان الحماسة) لأبي تمام، و(كتاب الأدب) لابن المعتز.
وبوجه عام يمكن القول إن الكلمة كانت تطلق في القرنين الثاني والثالث الهجريين وما تلاهما من قرون على معرفة أشعار العرب وأخبارهم، وكان المؤلفون العرب يصنفون كتباً ينعتونها بأنها كتب أدب مثل (البيان والتبيين) للجاحظ (ت٢٥٥هـ)، و(عيون الأخبار) لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، و(الكامل في اللغة والأدب) للمبرِّد (ت٢٨٥هـ)، و(العقد الفريد) لابن عبد ربه (ت٣٢٨هـ)، و(زهر الآداب) للحصري (ت٤٥٣هـ). =

= والواقع أنه (لم تقف الكلمة عند هذا المعنى التعليمي الخاص بصناعتي النظم والنثر وما يتصل بهما من الملح والنوادر، فقد اتسعت أحياناً لتشمل كل المعارف غير الدينية التي ترقى بالإنسان من جانبيه الاجتماعي والثقافي).
وبهذا المعنى الواسع يجدها الباحث لدى إخوان الصفا في القرن الرابع الهجري عندما استخدموها في رسائلهم للدلالة على علوم السحر والكيمياء والحساب والمعاملات والتجارة فضلاً عن علوم القرآن والبيان والتاريخ والأخبار.
ويبدو أن هذا المعنى الواسع كان الأساس الذي استند إليه ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) في إطلاق لفظة الأدب على جميع المعارف سواء أكانت دينية أم دنيوية، فالأدب فيما يراه (لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود به عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم. ثم إنهم إذا أراد أحد هذا الفن قالوا الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها، والأخذ من كل علم بطرف).
ومما يجدر ذكره أن الكلمة استخدمت منذ القرن الثالث الهجري، إلى جانب دلالتها على المعاني التي تقدمت الإشارة إليها، للدلالة على السنن التي يجب أن تراعى عند فئة اجتماعية معينة كالكتّاب أو الندماء أو الوزراء أو القضاة وغير ذلك، ويمكن للمرء أن يشير في هذا الموضع إلى كتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة و(أدب النديم) لكشاجم (نحو عام ٣٥٠هـ)، وسواهما من الكتب التي تناولت أدب القاضي وأدب الوزير وأدب الحديث وأدب الطعام وآداب السفر وغيرها.
ومنذ بداية المواجهة العربية ـ الأوربية الشاملة بُعيد الحملة الفرنسية على مصر، أصبحت الكلمة تُستخدم في العربية الحديثة للدلالة على ما يقابل كلمة (literature) الإنكليزية، و(Littérature) الفرنسية، وذلك نتيجة التفاعل الثقافي الذي عاشه الوطن العربي في القرنين الأخيرين. وهي تشير اليوم إلى (الأدب) بوصفه واحداً من الفنون الجميلة الستة أو السبعة، على اختلاف التعريفات ووجهات النظر والتوكيدات التي يلاحظها المرء لدى النقاد العرب ومؤرخي الأدب ودارسيه من العرب المحدثين.
الأدب لدى الغرب: استخدمت كلمة (Litteratur) (ليتراتورا) اللاتينية المشتقة من كلمة (Littera) (الحرف) أول ما استخدمت ترجمة لكلمة (grammatiké) (غرامّتيكي) اليونانية، وهي معرفة القراءة والكتابة. وما لبث أن استخدمت بعدها للدلالة على التبحر والثقافة الأدبية. فشيشرون ينعت قيصر بهما عندما يذكر أن=

=لديه أدباً وحساً جيداً وذاكرة وتأملاً ودأباً. وفي القرن الثاني للميلاد استخدمت الكلمة للدلالة على (مجموع من الكتابة)، إذ يجد المرء كلاً من تيرتوليان Tertullian وكاسيان Cassian يقابل بين الكتابة الزمنية الوثنية litteratura والكتاب المقدس Scriptura. ويبدو أن الكلمة في العصور القديمة كانت تستخدم عامة للدلالة على مجموع الأدب اليوناني وتاريخ الأدب ودراسته وما يتصل بذلك من معارف.
وتختفي الكلمة بهذا المعنى في العصور الوسطى ليقتصر استخدام كلمة (ليتراتوس) (litteratus) على من يعرف القراءة والكتابة.
ويلحق الشعر بالنحو والبلاغة بوصفهما يؤلفان ـ مع المنطق ـ ما يعرف بالفنون الحرة الثلاثة. ولكن الكلمة لا تلبث أن تعود مع عصر النهضة إلى الظهور. يلاحظ استخدام كلمة (لتراي ـ litterae) (آداب) مقترنة غالباً بالصفة (humanae) تمييزاً لها من الكتابات المقدسة، أو بالصفة (bonac) نعت مديح لها. وترد بهذا المعنى في جميع كتابات إراسموس Erasmus، ورابليه Rabelais، ودي بيليه Du Bellay، ومونتيني Montaigne، وآخرين في حين يستخدم درايدن Dryden الكلمة للحديث عن (الآداب الجيدة) good letters.
وفي القرن السابع عشر ينبثق مصطلح (Belles Lettres) (الأدب بوصفه فناً جميلاً)، فيقترح شارل بيرو Charles Perrault على كولبير Colbert إنشاء أكاديمية تضم قسماً خاصاً لـ (Belles Lettres) يشمل النحو والفصاحة والشعر. ويبدو أن هذا المصطلح كان مطابقاً في دلالته لمصطلح (الآداب الإنسانية) letters humanies كما يرد في معجم تريفو Dictionnaire de Trevoux الذي يعود إلى عام ١٧٠٤م، ولا ينطوي على أي من الدلالات غير المستحبة التي تتضمنها صفة (belletistic) التي تستخدم اليوم للدلالة على المغالاة في تذوق الأدب لذاته استناداً إلى ذاتية المتلقي من دون أخذ المعايير النقدية أو الأغراض الأخلاقية أو القيم الجمالية والفنية بالحسبان. وسرعان ما انتشر المصطلح الفرنسي خارج فرنسة، إذ استخدمه توماس رايمر Thomas Rymer في إنكلترة عام ١٦٩٢، ويغدو هيو بلير Hugh Blair عام ١٧٦٢ أول أستاذ للبلاغة والأدب بوصفه فناً جميلاً Belles Lettres في جامعة أدنبره.
ويطالع المرء في الحقيقة مصطلح (الأدب) بمعنى الثقافة الأدبية أو التبحر أو ببساطة معرفة اللغات الكلاسيكية منذ العقود الأولى للقرن الثامن عشر. فعلى=

=سبيل المثال يعرف الأدب في طبعة عام ١٧٢١ لمعجم تريفو بأنه (مذهب، معرفة معمقة للآداب)، وثمة في (الموسوعة العظيمة) مقالة بتوقيع J.D أي Jaucourt Le chevalier تعرف الأدب بأنه مصطلح (يعني التبحر ومعرفة الـ Belles Lettres) أو الأدب بوصفه فناً جميلاً.
وقد استخدمت الإنكليزية المصطلح بالطريقة نفسها فجون سيلدن John Selden عالم الآثار يوصف بأنه (شخص ذو أدب لا حدود له)، وبوزويل Boswell يصف الإيطالي جوسيبي باريتي Giuseppe Baretti بأنه (إيطالي ذو أدب مرموق). وظل هذا الاستعمال سائداً حتى القرن التاسع عشر. فجون بثرام John Pethram يؤلف عام١٨٤٠م كتاباً بعنوان (تخطيط لتقدم الأدب الأنكلو- سكسوني في وضعه الحاضر في إنكلترة) يستخدم فيه كلمة الأدب بمعنى دراسة الأدب أو معرفته.
وهكذا يتبين للمرء أن مصطلح (الأدب) قد استخدم منذ مطلع القرن الثامن عشر في أوربة للدلالة على (مجموع من الكتابة) body of writing على الرغم من أنه يصعب أحياناً إيجاد تفريق واضح في الاستخدام المتزامن بين كل من (الثقافة الأدبية) و(التبحر). وقد شاع هذا الاستخدام في كل من اللغات الفرنسية والإيطالية والألمانية والإنكليزية، وثمة أمثلة عديدة في كل منها لمؤلفات تستخدم المصطلح بهذا المعنى، وجميعها يشير إلى (أنواع الكتابة كلها بما فيها تلك الأنواع المتسمة بطبيعة التبحر كالتاريخ، واللاهوت، والفلسفة، وحتى العلوم الطبيعية). ولم تُضَيّقْ دلالة المصطلح لتشير إلى ما ندعوه اليوم بالأدب الخيالي imaginative literature (القصيدة، الحكاية، المسرحية) بوجه خاص، إلا ببطء شديد.
وباختصار يمكن القول إن مصطلح (الأدب) (literature) أو (الآداب) (letters) قد فهم في العصور القديمة وفي عصر النهضة على أنه يشمل جميع الكتابات النوعية التي يمكن أن تدعي الخلود. ولم ينبثق، إلا ببطء شديد أيضاً في القرن الثامن عشر، الرأي القائل بأن هناك فناً للأدب يضم الشعر والنثر بمقدار كونه (تلفيقاً خيالياً) imaginative fiction، ويستبعد المعلومات أو حتى الإقناع البلاغي، والمحاجة التعليمية، أو السرد التاريخي.
وقد عززت هذا المفهوم المناقشات المتصلة بفكرة الذوق ودور المتذوق، واختراع بومغارتن Baumgarten لمصطلح علم الجمال aesthetics وجهوده مع (كنت) ولا سيما في كتابه الأخير (نقد الحكم)، في التمييز ما بين الجميل،=

=والجيد، والحقيقي، والمفيد فضلاً عن النهوض البطيء لمكانة الرواية في المجتمع الأوربي، وقاد كل ذلك في نهاية المطاف إلى ظهور مفهوم للأدب مواز لمفهومي الفنون التشكيلية والموسيقى وغيرهما من الفنون الجميلة المعروفة، وغدا الأدب واحداً منها يتبوأ بين أقرانه الستة مكانة بارزة. (لاحظ لذلك: الموقع الألكتروني www.wikipedia.org)

الفصل الأول

القصـــة

وفيه بحوث:

البحث الأول: القصة لغة واصطلاحاً

البحث الثاني: القصة والموضوع والموقف الروائي

البحث الثالث: القصة القصيرة

البحث الرابع: القصة الفلسفية

البحث الخامس: الحوار

البحث السادس: الأسطورة

البحث السابع: شمولية الأدب الإسلامي

البحث الأول
القصة لغة واصطلاحاً

القصة لغة:

القصة جاءت من كلمة (قصّ) وهذه الكلمة في أصلها اللغوي تدل على التتبع لأثر ما، قال تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾[١]، وكذلك اقتص أثره، وتقصص أثره، وقال تعالى على لسان أم موسى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾[٢] أي تتبعي أثره حتى تنظري من يأخذه. وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾[٣]. والقصة: الأمر، والحديث. وقد اقتصصت الحديث: رويته على وجهه. وقد قص عليه الخبر قصصاً... القصص، بكسر القاف: جمع القصة التي تكتب[٤].

وفي لسان العرب: قال الأزهري: القص إتباع الأثر. ويقال:

---

(١) سورة الكهف: الآية ٦٤.

(٢) سورة الكهف: الآية ١٣.

(٣) سورة الكهف: الآية ١٣..

(٤) إسماعيل بن حماد الجوهري: تاج اللغة وصحاح العربية/ ٣، ١٠٥٢، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين ـ بيروت.

خرج فلان قصصاً في أثر فلان وقصا، وذلك إذا اقتص أثره. وقيل: القاص يقص القصص لإتباعه خبراً بعد خبر وسوقه الكلام سوقاً. وقال أبو زيد: تقصصت الكلام حفظته[١].

إذن فمدلول القصة في اللغة واضح وواسع، ولكنّ بعض المحدّثين يختار مدلولاً للقصة فيه بعض القيود، وهو (الحكاية عن خبر وقع في زمن مضى لا يخلو من بعض عبرة فيه شيء من التطويل في الأداء)[٢].

القصة اصطلاحاً:

الأدب القصصي بنحو عام، انتقاء أو انتخاب خاص لواحد أو لمجموعة من الشخصيات والأحداث والأفكار، يكتب بلغة الحوار أو السرد أو كليهما، ويخضع لبناء هندسي خاص من حيث بدايته ووسطه ونهايته والعلاقة العضوية بينهما، كما يخضع رسم الشخصيات والحوادث إلى تقنيات أو صياغات خاصة بكل واحد منها[٣].

أو هي: حكاية تروي نثراً وجهاً من وجوه النشاط والحركة في حياة الإنسان[٤]. أو الإخبار عن قضية ذات مراحل تتبع بعضها بعضاً كما يميل إليه البعض.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب/ ٧، ٧٥، نشر: أدب الحوزة، إيران ـ قم، ١٤٠٥هـ.
(٢) عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرأن، ط: دار الكتاب اللبناني ـ بيروت، ١٩٧٢م، ٤١.
(٣) د. محمود البستاني: القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي، ٢٩٧.
(٤) رضوان عبد الله: القصة في القرآن الكريم، ١

وعليه فالقصة عموماً: عمل فني قائم على بناء خاص، يصطنع منشؤها حدثاً أو أكثر عبر لغة تعتمد السرد أو الحوار أو كليهما، كما أنها تتضمن هدفاً فكرياً ينبيء عن فكر المنشيء.

يقول جامعو كتاب (قصص العرب) وهم: (محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم) في مقدمة الكتاب: تعد القصة أقدر الآثار الأدبية على تمثيل الأخلاق، وتصوير العادات، ورسم خلجات النفوس. كما أنها ـ إذا شرف غرضها، ونبل مقصدها، وكرمت غايتها ـ تهذب الطباع، وترقق القلوب، وتدفع الناس إلى المثل العليا من الإيمان والواجب والحق والتضحية والكرم والشرف والإيثار.

وقد كانت القصة ـ ولاتزال ـ ذات الشأن الأسمى في آداب الأمم قديمها وحديثها. فقد وردت في التوراة، وجاءت في الإنجيل، وزخرت بها آي الذكر الحكيم. ثم هي في شعر الإغريق ومخلفات الرومان، وآثار المصريين القدامى[١].

والواقع أن قصص العرب التي جمعها المؤلفون هي حكايات واقعية وإن شابها تصحيف وتحريف عن أحداث وقعت وكانت تروى من قبل حفاظها على أنها قصص واقعية حدثت، فكان الراوي حريصاً على إيراد أسماء وحوارات وأحداث تشكل مضمون القصة وبناءها القصصي. وبما أن مفهوم الدراما أو الحبكة التصاعدية

---

(١) قصص العرب: ٦، الطبعة الخامسة، المكتبة المصرية، بيروت ـ صيدا، ١٩٨٧م.

للحدث متوفر في أغلب هذه القصص، فإنها تشتمل على عناصر قصصية فنية بدون أن يقصد الراوي أو القاص إبراز هذه العناصر، لأن الهدف من قصها هو التاريخ بالدرجة الأولى، ولكنه التاريخ الواقعي الذي ينتقل من الواقع إلى القصة وليس مثل الرواية التاريخية التي تعمل على تحويل الأحداث التاريخية إلى قصة أو رواية.

في تقديم الباب الأول من (قصص العرب) يقدم المؤلفون قصص الباب الأول بالقول التالي:

في القصص التي تستبين مظاهر حياتهم، وأسباب مدنيتهم بذكر أسواقهم وإجلاب تجارتهم والمساكن التي كانت تؤويهم وسائر ما كان على عهدهم من دلائل الحضارة ووسائل المعاش[١].

ثم يقدمون قصصاً مثل: كيف رهن حاجب بن زرارة سيد بني تميم قوسه لدى كسرى، وقصة فتكة البراض وهو من فتاكي العرب، وحياة آل جفنة من خلال قصة حدثت لحسان بن ثابت، وقصة احتكام الشعراء في عكاظ، وقصص أبطالها أبو سفيان عند كسرى وعمرو بن العاص عند النجاشي، وقصص عن كرم عبد الله بن جعفر وغيرها، مما يشكل القص عاملاً مشتركا فيها. أي الحكاية وأبطال الحكاية وما دار فيها من حوار[٢]. ولكننا يجب أن نأخذ معنى القصة من خلال مراحل تطورها التاريخية. فليس المطلوب أن نخضع مفهوم القص، في جميع مراحله، للمفهوم الحديث. فالقصة في

---

(١) المصدر المتقدم: ٧.
(٢) المصدر السابق: ٧ ـ ٢٥.

القرآن الكريم مثلاً تتضمن عناصر القصة كاملة وليس بالضرورة أن نطبق عليها عناصر التعريف الحديث. فقصص مثل كليلة ودمنة ـ على سبيل المثال ـ تمتلك عناصر قصصية مؤثرة بينما نجد أبطالها من الحيوانات، يدور الحوار فيها على ألسنة الحيوانات، ولكن مغزى قصص كليلة ودمنة ينطبق على الواقع الانساني، سواء السياسي أو الثقافي أو الاجتماعي بما يتضمنه من تجارب وعبر وأحداث. كما نجد قصصاً أخرى ذات طابع فلسفي عميق مثل حي ابن يقظان، فضلاً عن ألف ليلة وليلة، مهما كان الموقف منها، فهي تعتبر ذات عناصر قصصية درامية عالية خاصة البنية والتقنيات المستعملة من خلال بطلة القصص وروايتها شهرزاد أو من خلال بلوغ التسلسل الدرامي للقص ذروتها في انتهاء كل ليلة ليبقى الحدث معلقاً ومشوقاً.

(إن فن القصة من أقرب الفنون الأدبية إلى النفس البشرية، لأنه فن يستقي مادته من الحياة اليومية الجارية بحلوها ومرها، وينقل التجارب والخبرات من واقع تلك الحياة، ويحيل ما يستقيه وما ينقله إلى أشياء ثابتة نسبياً، في صورة تتميز بروح الشمول أو التأثير القوي، وذلك عن طريق العرض الجيد، من خلال الأسلوب المحكم النسج الذي تترابط لحمه بسداه، وتتماسك العلاقات بين كلماته وجمله وتعبيراته، والذي يعطي دلالات جيدة مؤثرة. وليس هذا الأمر بالمستغرب، فالقصص يحكي لحياة الإنسان على هذه الأرض، فلقد كان القصص هو الأدب، والعلم، والثقافة العامة لما

تحويه كل قصة من معارف شتى بالخلق، والتاريخ الإنساني، والأديان، والطبيعة، والعادات، والتقاليد، فما شيء في التاريخ إلا وله قصة. والقصص مظهر حضاري تقاس به الأمم والشعوب، وما دام الأمر كذلك، فإنه يندر أن تجد شعباً من الشعوب، أو أمة من الأمم لا يوجد لديها تراث قصصي تحفل به)[١].

في بحثه عن القصة القصيرة في الأردن ـ الجذور والتحولات يقول الباحث محمد المشايخ:

بدأ فن القصة في زمن مبكر جداً من حياة الإنسان على الأرض، حين كانت القصة تقدم على شكل حكاية للمستمعين البدائيين، وكانت القصص النثرية قد ظهرت قبل الملاحم الشعرية في الأدب اليوناني في القرنين الثاني والثالث قبل الميلاد، مختلطة فيها الحوادث الممكنة في الواقع، مع المغامرات والسحر والأحداث الخارقة، ثم ظهرت في الأدب الروماني في أواخر القرن الأول بعد الميلاد، أما العصور الوسطى وبدايات عصر النهضة، فقد شهدت قصص المخاطرات المعتمدة على الأساطير والجنيات والخوارق والفروسية، حتى كانت قصص الإيطالي (بوكاشيو) التي ظهرت في كتاب عام ١٣٥٥م، والتي نقلت فن القصة خطوة مهمة نحو الواقع، ثم كانت قصص الأسباني (سرفانتس) التي قلدت الفروسية تقليداً ساخراً، وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر ظهرت في الأدب

---

(١) الدكتور فاضل والي: جذور القصة في الأدب العربي/ بحث منشور على الموقع الألكتروني .www.adabihail.com

الأسباني قصص الشطار، وتأثرت القصة في القرن السابع عشر بالكلاسيكية، ثم تطور هذا الفن الحديث حتى عرفته أوروبا في القرن الثامن عشر، وحدد النقاد آنذاك طولها ما بين (١٥٠٠ و١٠٠٠٠) كلمة، ورأوا أنها تمثل حدثاً واحداً في وقت واحد، وتتناول شخصية مفردة أو حادثة مفردة أو مجموعة من العواطف التي أثارها موقف مفرد، وأنها حوادث وأفعال، تقع في زمان ومكان، وتصدر عن أناس أو تقع لهم، ويجمعها القاص بأسلوبه الخاص، كما حددوا لها أربعة أركان هي: الحادثة، الشخصية، العقدة أو الحبكة، الأسلوب.

ولدى استقصاء الجذور التاريخية لفن القصة في الأدب العربي، لا بد من الإشارة إلى أن العرب في جاهليتهم كانوا يمتلكون حكايات يتلهون بها ويسمرون، أما القصص الأولى فقد رواها الطبري في تاريخه، وتم استبعاد القصص الغزلي المتمثل في أخبار العذريين المتفرقة، لأنها تحتاج إلى قدر كبير من التناسق والربط بين الأحداث والشخصيات، ولدى الحديث عن القصة العربية، يتم التوقف عادة عند نوعين من القصص، أحدهما: مترجم، ويتمثل في (كليلة ودمنة)، و (ألف ليلة وليلة) وثانيهما: عربي أصيل، ويتمثل في (المقامات)، أما القصة العربية بمعناها الحديث، فقد بدأت متأثرة بالقصص المعروفة في أدبنا القديم في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، حيث بدأ الوعي الفني ينمي جنس القصة من موردها الناضج في الآداب الأخرى، وأخذ الوعي الفني

الخلاق بالنضج، وبدأ أدباء العربية يبدعون قصصاً تتصل بعصرنا وبيئتنا وتتفاعل مع مجتمعاتنا، وكان تأثر قصاصينا أولاً بالكلاسيكية باعتبارها مذهباً محافظاً، ثم تأثروا بالرومانسية خاصة في منهج القصص التاريخية، وفي منهج القصة التاريخية الرومانتيكية في نزعتها العاطفية القومية والوطنية، ومن ثم بدأت القصة العربية تتأثر بالإتجاهات الفلسفية والواقعية في معالجة الحقائق الكبرى أو المشكلات الإجتماعية المهمة.

ويتوارد إلى الذهن سؤال هو: هل عرفت القصة في أدبنا العربي قديماً؟

وللإجابة على هذا السؤال يقول الدكتور فاضل والي في بحثه (القصة في الأدب العربي)[1]:

إن النقاد أمام قضية وجود القصة في أدبنا العربي القديم، أو عدم وجودها انقسموا إلى ثلاث فرق:

الفريق الأول: يرى أن العرب لم يعرفوا القصة، وأن الأمة العربية والتراث الإسلامي خلو من الفن القصصي، وأنهم لا يعرفون القصة والفن القصصي. وأول من تبنى هذا الإتجاه هم واضعو دائرة المعارف البريطانية في الجزء الخاص بالأدب الإسلامي، فهم يرون

(١) لاحظ لذلك مفصلاً: الدكتور فاضل والي: جذور القصة في الأدب العربي/ بحث منشور على الموقع الألكتروني: www.adabihail.com، بتصرف.

أن الأدب التمثيلي، وأدب القصص من الفنون المحرمة والممنوعة في الإسلام.

كما اتجه نفس الوجهة الأستاذ أحمد حسن الزيات وإن اختلف تبريره، حيث قال: القصص فن من فنون الأدب الجليلة، له عند الفرنج مكانة مرفوعة، وقواعد موضوعة، أما عند العرب فلا خطر له، ولا عناية به، لانصرافهم عما لا رجع للدين منه، ولا غناء لملك فيه.

وللأسباب التي دعت إلى قصورهم في الشعر القصصي، وهي أن مزاولة هذا الفن تقتضي الروية والفكرة، والعرب أهل بديهة وارتجال، وتطلب الإلمام بطبائع الناس، وقد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهم، وتفتقر إلى التحليل والتطويل، وهم أشد الناس اختصاراً للقول، وأقلهم تعمقاً في البحث، وقد قلّ تعرضهم للأسفار البعيدة، والأخطار الشديدة، وحرمتهم طبيعة أرضهم، وبساطة دينهم، وضيق خيالهم، واعتقادهم بوحدانية الههم كثرة الأساطير، وهي من أغزر ينابيع القصص، كما أن هذا الفن نوع من أنواع النثر، والفن الكتابي أو النثر الفني ظل في حكم العدم أزمان الجاهلية وصدر الإسلام حتى آخر الدولة الأموية حين وضع ابن المقفع الفارسي مناهج النثر، وفكر في تدوين شيء من القصص.

ومن الذين جردوا أدبنا القديم من فن القصة الأستاذ يحيى حقي حيث ذهب إلى أن القصة العربية نشأت تحت التأثير الأوروبي، فقد حملت الرياح التي تهب من أوروبا بذرة غربية على المجتمع

العربي، بذرة القصة، كما ذهب إلى أن ما يحويه التراث العربي من قصص على شكل سير وأخبار ومقامات ما هو إلا فتات فني تنقصه الوحدة.

وأشار إلى مثل هذا بطرس البستاني في معرض حديثه عن نشأة القصة عند العرب ومنزلتها حيث قال: إنه لم تأتنا عنهم (أي عن العرب) قصص راقية الفن، وإنما جاءنا حكايات، ومقامات، وأحاديث، وإن كان قد ناقض نفسه بعد كلمات قليلة من قوله هذا حيث قال: ثم كان عصر الانحطاط، فانحدرت القصة انحداراً مشؤوماً، وآلت لغتها إلى العامية، أو ما يشبه العامية، وأصبحت عبارة عن تعداد حوادث خارقة يشترك فيها الإنس والجن، ولا تصور في أكثر وجوهها الحياة الطبيعية التي يحياها الإنسان. على أنه ما انتشرت الثقافة الغربية في القرن الفائت (أي في القرن التاسع عشر)، واطلع الكتاب على القصص الأعجمية حتى أكبوا على نقلها. فأي قصص هذه التي انحدرت انحداراً مشؤوماً قبل القرن الفائت كما يقول؟ إنها بلا شك قصص عربية قديمة وجدت في أدبنا العربي، وأصابها ما أصاب الأدب على وجه العموم شعره ونثره من انحطاط.

وهو بهذا ينقض ما قرره آنفاً بشأن عدم وجود قصص في أدبنا العربي القديم. ولقد تصدى للرد على هذا الإدعاء بعدم وجود قصص تمثل فناً راقياً في أدبنا العربي القديم كثير من النقاد، مبينين أن مثل هذا الإدعاء فيه كثير من الافتراء والمغالطة لحقائق التاريخ

الأدبي في اللغة العربية، وإن مثل هذا الإدعاء والإنكار سواء من الغربيين أنفسهم، أو من النقاد العرب إنما جاء لأنهم وضعوا القصة الغربية بمفهومها الغربي، وصياغتها الخاصة كأنموذج فبحثوا عن مثل هذا اللون في التراث العربي فلم يجدوا، وهذا مقياس خاطئ في تعميم عدم وجود الفن القصصي في الأدب العربي، فالقصص في العربية له خصائصه ومناهجه وألوانه، وأشكاله في تصوير المجتمع العربي، آماله وآلامه، وواقعه وأحلامه. والحق أنه قد وجد في العربية فن قصصي، منه ما هو مترجم مثل (ألف ليلة وليلة)، و(كليلة ودمنة)، ومنه ما هو مكتوب أصلاً بالعربية مثل قصص المقامات والقصص الشعبي، وقصة (حي بن يقظان)، وقصة (زنوبيا ـ ملكة تدمر)، بل أن الأدب العربي حفل بقوالب متعددة للتعبير عن القص مثل: (قال الراوي)، و (يحكى أن)، و (كان يا ما كان)، وما إلى ذلك من المقدمات التي كان يبدأ بها القاص حديثه القصصي...

فليس صحيحاً أن العرب القدامى لم يعرفوا القصة لمجرد أن خصائص القصة الحالية لا تنطبق على القصص كما عرفها العرب، وهذا شبيه بقولنا تماماً: إن الأقدمين لم يعرفوا البيوت لمجرد أنهم لم يسكنوا العمارات والفيلات التي نسكنها اليوم...

وقد عرف العرب في الجاهلية ألواناً من القصص، وكان لهم تراثهم الأسطوري. وقد استدل خورشيد على أصالة الفن القصصي لدى العرب بما ورد في القرآن الكريم من قصص، إذ أشار إلى أنه

إدراك لخطر القصة وأثرها في نفوس العرب، مما يدل على رسوخ هذا الفن في تراثهم...

أما الفريق الثالث: ويمكن أن نسميه فريق التوفيقيين فعلى رأسهم د:محمد صالح الشنطي الذي حرص على التوفيق بين آراء الرافضين لوجود القصة في أدبنا العربي، والقائلين بوجود هذا اللون الأدبي بقوله:

إن القصة بمفهومها العام قديمة قدم البشر، ولكنها كفنٍ لم تظهر إلا في القرن التاسع عشر، وبذور هذا الفن القصصي موجودة في التربة منذ القدم، وأكمل وجه من وجوهها ما ورد في القرآن الكريم من قصص الأنبياء والأمم الغابرة، ويعتبر القصص القرآني ذخيرة غنية بأروع الأساليب القصصية، حتى الأساليب الفنية التي لم تظهر إلا في العصر الحديث. ثم يضيف قائلاً:

وليس من شك في أن الرواية بمفهومها العام، وكذلك القصة القصيرة من الفنون الأصلية في أدبنا العربي القديم، ولكن الرواية كفنٍ له تقاليده، وقيمه الجمالية المعاصرة وتعبيره عن أوضاع اجتماعية بعينها، بحيث يرى كثير من الباحثين أنه ارتبط بنشأة الطبقة المتوسطة في أوروبا فهو يعتبر حديثاً، غير أن التراث الإنساني في هذا المجال، يظل حقيقة ماثلة، ولا يضيرنا في شيء أن تكون الرواية الحديثة مختلفة في تقنيتها عما ورثناه، فلكل عصر ضروراته ومتطلباته، وبالتالي ليس ثمة قضية تقتضي أن نحتشد لها هذا الاحتشاد، فأصحاب البأس القائل بأن الأدب العربي لم يعرف

القصة ولا الرواية لم يتنكبوا طريق الصواب، بل نظروا إلى القضية من زاوية أخرى (هي زاوية المقاييس الفنية الحديثة)، وليس من زاوية القصة بمفهومها العام كوسيلة للإمتاع والتسلية، والتذكير بالأحداث المؤثرة، وليس في هذا خطورة، بل الخطورة في النوايا، فهناك من يتعصب ضد الأدب العربي حقداً وكراهية، وليس توخياً للحق والإنصاف، وهؤلاء هم الجديرون بالتصدي لهم، وفضح ادعاءاتهم، وبهذا الاتجاه استطاع الدكتور الشنطي أن يوفق بين الاتجاهين المتقابلين.

وإن كنا نستشعر أنه أكثر ميلاً إلى رأي القائلين بوجود الفن القصصي في أدبنا العربي، ونحن نرى أنه من غير المعقول أن نجرد أمة يمتد تاريخها الأدبي إلى ما يقرب من ألفي عام من عنصر أساسي من عناصر الأدب، ولون على جانب كبير من الأهمية من ألوانه، وقد اتضح لنا وجود الكثير من القصص والقصاصين في العصر الجاهلي، ولو لم تكن القصة معروفة ولها تأثيرها في العصر الجاهلي ما خاطب القرآن الكريم مشركي مكة بكثير من القصص المؤثر، حتى لفظ كلمة قصة واشتقاقاتها المختلفة جاءت في القرآن الكريم فيما يزيد على عشرين موطناً، وساق القرآن الكريم كثيراً من القصص منها القصة القصيرة كقصة صاحب الجنتين في سورة الكهف، وفي نفس السورة جاءت قصة أهل الكهف، وقصة موسى والخضر عليه السلام، وقصة ذي القرنين، وجاءت قصة سليمان عليه السلام والهدهد، وسليمان عليه السلام والملكة بلقيس ملكة سبأ، وقصة

سليمان ﷺ والنملة في سورة النمل، وجاءت قصة أصحاب الجنة في سورة القلم، وغيرها، كما ساق القرآن القصة متوسطة الطول كقصة مريم ﷺ مع قومها، وجاء القصة الطويلة التي تشبه الرواية في سورة يوسف ﷺ، كما ساق القصة بالغة الطول المتعددة المواقف كل موقف في موضع، ولكن المواقف يتمم بعضها بعضاً حتى تكتمل كما حدث في قصتي موسى وإبراهيم ﷺ.. وهذا أبرز دليل على أن العرب كانوا يعرفون القصة بكل أشكالها وألوانها ولولا تلك المعرفة ما خاطبهم القرآن بها، وما قصها عليهم...

أهم عناصر العمل القصصي:

أ. الحادثة: الحادثة في العمل القصصي مجموعة من الوقائع الجزئية مرتبطة ومنظّمة على نحو خاص، هو ما يمكن أن نسمّيه: الإطار، أو: الحلبة.

ففي كل القصص يجب أن تحدث أشياء في نظام معيّن، وكما أنه يجب أن تحدث أشياء، فإن النظام هو الذي يميّز إطاراً عن آخر. فالحوادث تتبع خطّاً في قصّة، وخطّاً آخر في قصّة أخرى. والذين يتعرّضون لنقد القصة، يتحدّثون عمّا يسمّونه: الحبكة[1]. بدلاً من

---

(١) الحِبكة: بفتح الحاء، من حَبك حَبكا أي الشد الوثيق، وحبك الشيء: شده شداً وثيقاً. وفي المعجم الوجيز: أي أحكمه ويقال حَبَك الأمر أحسن تدبيره والثوب ثنى طرفه وخاطه. وفي مختار الصحاح: عن ابن الأعرابي: أن كل شيء قد أحكمته وأحسنت عمله فقد (احتبكته). وبضم الحاء: من حُبُك ومنها الحُبكة وهي الحبل يشد به على الوسط. وفي الوجيز: الحَبيكة هي الطريقة في الرمل أو=

الإطار. ومفهومها: "أن تكون حوادث القصة وشخصياتها مرتبطة ارتباطاً منطقياً، يجعل من مجموعها وحدة ذات دلالة محدّدة. فسردُ أيّ مجموعة من الحوادث مرتبطة بما يلزم من الشخصيات، لا يكفي حتى نعدّ ما يسرد قصّة فنيّة"، فالسرد ـ أيضاً ـ خاصية للكتابة التاريخية، والحبكة الفنية ـ إذن ـ في المفهومات الشائعة لها شيء يضاف إلى السرد ليجعل من الأشياء المسرودة بناء متماسك الأجزاء، يؤدّي هدفاً واحداً)[1].

فالحادثة الفنية هي تلك السلسلة من الوقائع المسرودة سرداً فنياً، التي يضمّها إطارٌ خاص.

وإذا كنا نتحدث عن عنصر الحادثة، فينبغي أن نذكر أن هناك نوعاً من القصص يُعنى عناية خاصة بالحادثة، وسردِها، وتقلّ عنايته بالعناصر القصصية الأخرى. ويسمّى هذا النوع: قصة الحادثة، أو القصة السرديّة.

وفي القصة السردية تكون (الحركة) هي الشيء الرئيسي، أما الشخصيات فإنها ترسم كيفما اتّفق، فالحركة عنصر أساسي في العمل القصصي. وهي نوعان: حركة عضوية، وحركة ذهنية،

=الماء وقد تكون مسير النجم أيضاً وفي التنزيل الحكيم: ((والسماء ذات الحبك)). وفي مختار الصحاح: أن الدرع الحديدي له حُبُك والشعرة الجعدة تكسّرها يسمى حُبُك وفي حديث الدجال: (أن شعره حُبُك).

(١) البناء الفني لقصص الأطفال عند روضة الهدهد: مقال منشور على الموقع الألكتروني.

والحركة العضوية تتحقق في الحوادث التي تقع، وفي سلوك الشخصيات، وهي بذلك تعدّ تجسيماً للحركة الذهنية التي تتمثّل في تطور الفكرة العامة نحو الهدف الذي تهدُف إليه القصة.

ب. السّرد: حين نقرأ القصّة تتمثّل الحادثة فيها، ولكن من خلال تلك الألفاظ المنقوشة على الورق. أي: من خلال اللغة. والسرد: هو نقل الحادثة من صورتها الواقعة إلى صورة لغوية. ولكنّ السرد الفني لا يكتفي عادة بوصف الأفعال ـ كما يحدث في كتابة التاريخ ـ بل نلاحظ دائماً أن السرد الفني، يستخدم العنصر النفسي الذي يصور به هذه الأفعال. وهذا من شأنه أن يكسب السرد حيوية، ويجعله لذلك فنياً.

وبينما يرتبط المؤلف المسرحي بطريقة واحدة لكي يحكي قصته ـ وهي السرد الذي يتمثّل في الحوار الذي يجري بين الشخصيات ـ فإن لكاتب القصة أن يختار بين ثلاث طرق: الطريقة المباشرة، أو الملحمية، وطريقة السرد الذاتي، وطريقة الوقائع.

والطريقة الأولى مألوفة أكثر من غيرها، وفيها يكون الكاتب مؤرِّخاً يسرد من الخارج. وفي الطريقة الثانية يكتب على لسان المتكلم. وهو بذلك يقدّم ترجمة ذاتية خيالية. وفي الطريقة الثالثة تتحقّق القصة عن طريق الخطابات، أو اليوميات، أو الحكايات والوثائق المختلفة. ومن الواضح أن لكل من هذه الطرق الثلاث مزاياها الخاصة، لأنه بينما تفسح الطريقة المباشرة ـ دائماً ـ أبعد المدى، وتعطي أكثر قدر من حرية الحركة، فإنه يمكن الحصول

على متعة أعظم، وأكثر قرباً إلى النفس عن طريق استخدام طريقة المتكلّم، أو طريقة الوثائق.

جـ البناء: فقد عرفنا أن الكاتب يختار وقائع بذاتها، يؤلّف بينها. ويكون منها البناء الكامل للحادثة. وهناك صور عدّة لبناء الحادثة القصصية بناءً فنياً، ويمكن أن يُقال: إن كل قصة لها صورة بنائية خاصة بها. ومع ذلك فقد أمكن ضبط مجموعة عن الصور البنائية العامة[١].

وهناك ـ بصفة عامة ـ صورتان لبناء الحبكة القصصية، وهما: صورة البناء، والصورة العضوية. وفي الأولى لا تكون بين الوقائع علاقة كبيرة ضرورية أو منتظمة. وعندئذ تعتمد وحدة السرد على شخصية البطل الذي يربط بوصفه النواة الشخصية المركزية بين العناصر المتقدمة. وقصص المغامرات ـ بعامة ـ تمثل هذا النوع. مثال ذلك قصة (روبنسون كروزو)[٢] فالأشياء فيها تحدث،

(١) لاحظ مفصلاً القصة: مقال منشور على الموقع الألكتروني.
(٢) قصة روبنسون كروزو: روبنسون كروزو هي قصه كتبها (دانيال ديفو)، نشرت للمرة الأولى سنة ١٧١٩م. تعتبر أحيانا الرواية الأولى في الإنكليزية. هذه الرواية هي سيرة ذاتية تخيلية وهي تحكى عن شاب انعزل في جزيرة ما، وحيدا لمدة طويلة دون أن يقابل أحد من البشر، ثم بعد عدة سنوات يقابل أحد المتوحشين وعلمه بعض ما وصل اليه الإنسان المتحضر من تقدم فكري وجعله خادمه. وفى نهاية القصة عاد روبنسون كروزو ومعه خادمه إلى أوربا حيث العالم المتحضر. وهذه القصة تعني إلى الكثيرين حلم الإنعزال عن هذا العالم الظالم والحياة في ظل الطبيعة الرحيمة بالنسبه لهذا العالم كما تظهر مدى التحضر الذى توصلت له الأمم الأوربية. هذه التقنية تعرف باسم الوثيقة الخاطئة، وهي تعطي شكلاً واقعياً للقصة. =

والشخصيات تلتقي وتفترق، ولكنها ليس لها عمود فقري بنائي

=يغادر كروزو إنكلترا في رحلة بحرية في أيلول عام ١٦١٥ مخالفاً رغبات والديه. يسطو القراصنة على السفينة ويصبح كروزو عبداً لأحد المغاربة. يتمكن كروزو من الهرب في زورق ويصادف قائد سفينة برتغالية مِنْ الساحلِ الغربيِ لأفريقيا. كان طريق السفينة إلى البرازيل حيث هناك بمساعدة من الكابتن يصبح كروزو مالك لمزرعة. ينضم كروزو إلى بعثة لجلب العبيد من أفريقيا، لكنة غرق في عاصفة تبعد أربعون ميلاً في البحر على مدخل نهر (أورانوكو) في ٣٠ أيلول عام ١٦٥٩. يموت جميع رفاق كروزو ويتمكن هو من جلب الأسلحة والأدوات والتجهيزات الأخرى من السفينة قبل أن تتحطم وتغرق. يقوم في بناء سور في مسكن وكهف، يصنع رزنامة بواسطة صنع علامات بواسطة قطعة خشب. يقوم بالصيد ويزرع الذرة ويتعلم صناعة الفخار ويربي الماعز.. يقرأ الإنجيل ويصبح متديناً فجأة ويشكر الله على مصيره فلا شيء قد فقد منه إلا المجتمع. يكتشف كروزو آكلي لحوم بشر يقومون بزيارة الجزيرة ليقتلوا ويأكلوا السجناء، في بادئ الأمر يخطط لقتل الهمج لفظاعتهم لكن يدرك أن ليس لديه الحق لعمل هذا لأنهم لم يهاجموه ولم يرتكبوا جريمة بمعرفته. يحلم كروزو بأسر واحد أو أثنين من الخدم بتحرير بعض السجناء وفي الحقيقة، عندما استطاع سجين الهُرُوب، يساعده كروزو، يَسمّي رفيقَه الجديدَ "جمعةَ (Friday) تبعا ليومِ الأسبوع الذي ظهر فيهَ، ويُعلّمُه الإنجليزية ويُحوّلُه إلى المسيحيةِ. تصل مجموعة جديدة من السكان الأصليين ويشاركون في وليمة مريعة ويستطيع جمعة وكروزو قتل معظمهم والاحتفاظ باثنان منهم (واحد هو والد جمعة والثاني أسباني) يخبر الأسباني كروزو أن مجموعة من الأسبان الذين غرقوا موجودون على هذه الجزيرة. تبتكر خطة حيث يعود الأسباني ووالد جمعة والبقية إلى الجزيرة حيث يبنون سفينة ليبحروا بها إلى ميناء أسبانيا. قبل أن يَعود الأسبان، تظهر سفينة إنجليزية؛ ويسيطر الثوار على السفينة وينووا هِجْر قائدِهم السابقِ على الجزيرةِ.القائد وكروزو يَستطيعانِ العودة أخذ السفينةَ. ويَتوجّهونَ إلى إنجلترا، وقد تَرْكوا ورائهم ثلاثة مِنْ الثوارِ لاعتماد على أنفسهم وإعلام الأسبان الذي حَدثَ. يَتركُ Crusoe الجزيرة في ١٩ كانون الأول ١٦٨٦. يُسافرُ إلى البرتغال لإيجاد صديقه القديم، القبطان، الذي يُخبرُه بأنّ مزرعتَه البرازيليةَ اهتمت بشكل حسن وقد أصْبَحَ غنياً. مِنْ البرتغال، يُسافرُ براً إلى إنجلترا، لتَفادي الحوادث في

واضح، أو وحدة عضوية، ولم يكن من الضروري للكاتب في هذه الحالة أن يعرف كل تفصيلات القصة قبل أن يبدأ كتابتها، فقد كان يكتفي أن يكون في ذهنه معرفة عامة بالطريق الذي ستتبعه القصة.

أما في الصورة البنائية العضوية، فإن القصة مهما امتلأت بالحوادث الجزئية المنفصلة الممتعة فإنها تتبع (تصميماً) عاماً معقولاً. وفي خلال هذا التصميم نقول كل حادثة تفصيلية بدور حيوي واضح. فهناك شيء أكثر من مجرّد الفكرة العامة بسير القصة، فالخطّة البنائية كلها لابد من أن تعد بصورة مفصّلة، وأن تنظّم الشخصيات والحوادث بحيث تشغل أماكنها المناسبة، وأن تؤدّي كل الخطوط إلى النهاية.

د. الشخصية: إن الأشخاص يشغلون جزءاً كبيراً من حياتنا، إذا نحن قدّرنا ألوان التفاعل التي تتم بيننا، وبينهم، والتي تثير كثيراً من

البحر، عن طريق إسبانيا وفرنسا؛ أثناء شتاء في جبال البرانس، هو ورفاقه يَجِبُ أنْ يَطْردوا هجومَ بالذئابِ الشريرةِ. يُقرّر كروزو ترك مزرعته مع الكابتن البرتغالي ويترك أموالة مع صديقته الأرملةالتي تعتبر كأم لربينسون كروزو، كعودة إلى البرازيل تَستلزمُ التَحويل إلى الكاثوليكيةِ. لاحقاً في حياة ما بعد الزواج، ويُصبح أرملاً، يَعُودُ إلى جزيرتِه لآخر مَرّة. دون أن يكون خادمة جمعة معة ليعود جمعه مع والده وقبيلته. يَنتهي الكتاب بتلميح حول تكملة التي تفصّلُ عودتَه إلى الجزيرةِ، التي كَانتْ قَدْ اكتشفت. رغم أن القصه تعتبر من أعظم القصص في تاريخ الأدب الأوربى إلا أن هناك تشابهاً مريباً بين فكرتها وفكرة قصة حي بن يقضان لابن الطفيل، لكن أقرب احتمال هو أنه استقاها من حياة بحار علق في جزيرة مهجورة ويدعى ألكسندر سيلكيرك. القصه كانت مصدر لعدة قصص وأعمال تلفزيونيه أخرى مثل طرزان وماوكلي. (لاحظ لذلك الموقع الألكتروني: www.wikipedia.org).

المشاعر وألواناً من العطف، وتولد الفكرة إثر الفكرة. والقصة معرض لأشخاص جُدد يقابلهم القارئ ليتعرّف عليهم، ويتفهّم دورهم، ويحدّد موقفهم.

وكما رأينا أن هناك نوعاً من القصة يعرف بقصة الحادثة. فإن هناك أيضاً (قصة الشخصية.. في الأولى تتمثل الوقائع، وفي الأخرى: المواقف. في الأولى: يكون الاهتمام بالحادثة أولاً، ثم تُختار الشخصيات المناسبة وفي الأخرى: يكون العكس.

على أن الشخصيات ذاتها في القصة نوعان: نوع يمكن أن نسمّيه: (الشخصية الجاهزة) وهي الشخصية المكتملة التي تظهر في القصة ـ حين تظهر ـ دون أن يحدث في تكوينها أي تغيير، وإنما يحدث التغيير في علاقاتها بالشخصيات الأخرى فحسبُ. أما تصرّفاتها فلها ـ دائماً ـ طابع واحد. والنوع الثاني يمكن أن نسمّيه: (الشخصية النامية) وهي الشخصية، التي يمكن تكوينها بتمام القصة، فتتطور من موقف لموقف، ويظهر لها في كل موقف تصرّف جديد يكشف لنا عن جانب منها، والذوق الحديث يفضّل النوع الثاني من الشخصية.

هـ. الزمان والمكان: كل حادثة تقع، لابد من أن تقع في مكان معيّن، وزمان معيّن، وهي لذلك ترتبط بظروف وعادات ومبادئ خاصة بالزمان والمكان اللذين وقعت فيهما، والارتباط بكل ذلك ضروري لحيوية القصة، لأنه يمثّل البطانة النفسية للقصّة، وتزداد أهميته عندما يساعد على فهم الحالة النفسية للقصة، أو الحادثة.

وهناك نوع من القصة يسمّى: القصة العصرية، وهي لا تحاول أن تُطلعنا على الحقيقة الإنسانية التي تصدق في كل عصر، بل تكتفي بمجتمع في مرحلة انتقال، وبالشخصيات التي لا تكون حقيقة إلاّ بمقدار تمثيلها لذلك المجتمع.

و. الفكرة: كل قصة إنما تحدث لتقول شيئاً، لتقدّر فكرة. فالفكرة هي الأساس الذي يقوم عليه البناء الفنّي للقصة. والموضوع الذي تُبنى عليه القصة لا يكون دائماً إيجابياً في أثره، وحين نبحث عن مصدر إعجابنا بقصّة قرأناها، سنجد أن فكرتها كان لها أثر في هذا الإعجاب. ولكن هل نحن نقرأ العمل الفني لفكرته فحسب؟ ولكن القصة تمتاز عن الحياة بأن لها صورة فنية خاصة. فالكاتب يقدّم إلينا قصة ـ وقصة بالذات ـ حين يقدّم إلينا فكرة. وهنا تحدث مفارقات غريبة، فقد تكون القصة ناجحة من حيث الإطار الفني، ولكنها تنطوي على فكرة لا تروقنا. وهناك ـ أيضاً ـ قصص ممتلئة بالحياة، ومع ذلك تفقد الشكل الفني. ولكن المؤكد أن القصة ـ ككل عمل فني ـ لا يتحدد لها شكل حتى تتحقق فيها فكرة الكاتب، فتحقّق الفكرة، يفترض بالضرورة وجود شكل، فإذا نحن أُعجبنا بفكرة القصة فإننا نكون في الوقت نفسه. قد أُعجبنا بالصورة التي أُديت فيها هذه الفكرة، وأي خلل في هذه الصورة سيكون له أثره في الفكرة. وبعبارة أخرى فإن فكرة أي قصة تتحقق بتحقق القصة ذاتها. وكما أن هناك أنواعاً من القصة تعنى عناية خاصة بالحادثة أو بالشخصية. فهناك القصة التي تهتم اهتماماً أكبر بالفكرة ويقلّ

الاهتمام فيها بالتشخيص وبالسرد. ومعنى هذا أن الشخصيات تتصرّف وفقاً لفكرة الكاتب لا تبعاً لتكوينها الخاص. وبذلك قد تكون تصرفاتها منطقية، ولكنها رغم ذلك لا تكون مؤثّرة لأنها فقدت حدّيتها أمام التوجيه الخاص الذي يوجهها به المؤلف. ففي قصة الفكرة يغلب الجانب المنطقي جانب الضرورة. ويقل جانب الحرية.

هذه أهم عناصر الفن القصصي والدور الذي يقوم به كل عنصر في أنواع القصة التي تهتم بعنصر أكثر من غيره. كما أن لنا وقفة خاصة مع عنصر مهم وهو الحوار، وسيأتي الحديث عنه في البحث الخامس إن شاء الله تعالى.



المبحث الثاني
القصة والموضوع والموقف الروائي

الرواية هي قصة مبتكرة، ولكنها في الوقت ذاته ورغم كونها مبتكرة، لها القدرة على الإيحاء بالصدق، ولكن: الصدق بأي مقياس؟ طبعاً بمقياس عكسها للواقع من أحداث وأحاسيس ومشاعر وقيم. وهذه هي مواصفات الواقعية في الأدب. والرواية الواقعية سادت حقبة القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين فهي انعكاس للواقع الذي يعيشه المجتمع في أي مكان أو أية حقبة.

خيال الروائي:

إذا كنا نرغب في الحصول على الحقيقة فلماذا لا نقصد الكتب التي تعالج الحقيقة بصراحة ككتب السير أو كتب الوثائق؟ ولماذا يطلق الراوي لنفسه الخيال حتى يتصور البعض أن الرواية ليست حقيقية مع أنها تعكس الواقع بشكل فني ومتخيل حتى وصل الأمر إلى تقسيم الرواية اليوم إلى رواية واقعية ورواية خيالية Fiction and Non fiction أي الرواية الخيالية أو الفن الروائي الذي تفترض فيه

الأحداث، والرواية التي تعتمد على الواقع وماجرى فيه بالأسماء الحقيقية والتواريخ والأماكن نفسها.

الرواية لا تلزم نفسها بما يحدث فقط. وهي لا تعتمد على مجرد رواية الأخبار، أنها تضيف لها وتزيد عليها، فهي ـ الرواية ـ ليست نشرة إخبارية. كما أنها ليست حوادث مثيرة للحس ولا مدهشة للنظر، وهنا يأتي دور الشرارة التي تبعث الحياة الحقيقية في الرواية، وهي خيال الروائي ذو القدرة المتميزة، وهذا الخيال لا يقتصر على الإختراع فقط، بل أنه يدرك الأشياء ويحسّها، فهو يضاعف من الأشياء التي تبدو عادية مألوفة وهكذا فهو يمدها بقوة جديدة ويزيد من أهميتها ويضاعف من صدقها كما يعطيها حقيقة داخلية أعمق.

وهذا مفهوم الفن ـ الفن الذي يدخل في تكوين الرواية، كما نعلم جميعاً، بالإشتراك مع الشعر والدراما والتصوير والموسيقى، ولكن مع الفن وبنسبة ليست بأقل منه تشترك الصناعة الفنية. فالصناعة الفنية هي عامل جوهري أكيد ومطلق في كتابة الرواية. وكما نعلم بأن الرواية هي قصة، فما هي القصة الجيدة؟

إن الروائيين المحترفين ليميزون القصة الجيدة في الحال، فإدراك مفهوم القصة جزء من براعتهم، تدبر مثلاً براعة الاختيار ـ والبحث عن القصة ـ عند (ديكنز) و (جين استن) و (بلزاك) و (ديستوفسكي) و (تولستوي) إذا اكتفينا بقليل ممن نسميهم بالكتاب الكلاسيكيين.

فضلاً عن أن الروائيين مثل (همنجواي) و (فوكنر) و (كونراد) و

(غابرييل غارسيا ماركيز) و (كافكا) و (كامو) وغيرهم كثيرون كتبوا رواياتهم وقصصهم استناداً على المفاهيم المتداولة عن معنى الرواية من خلال عناصر القص والشخصيات والأحداث والحقب والحوار والعقدة والحجم أيضا فالرواية تتميز بحجم كبير جداً قياساً إلى القصة التي أخذت مفهوم (القصة القصيرة) تمييزاً لها عن القصة الطويلة كرواية.

وهناك مجموعة عناصر تشكل مفهوم الرواية كما قلنا. لكن واحداً فقط من تلك العناصر لايشكل رواية بمفرده. فالحبكة، مثلاً، وهي عبارة عن الخطوط العامة للأحداث، من الضروري أن تشتمل على تسلسل الحوادث وفق عامل السببية (سبب يؤدي إلى وقوع أحداث معينة، ونتيجة تترتب على تلك الأحداث).

وأن يلعب عامل التوقع دوراً فعالاً فيها بحيث يظل القارئ يتسائل عما يحدث بعد ذلك.

ولكن شيئاً آخر ضروري للقصة أيضاً إذا أريد لها أن تمتلك العناصر الصحيحة المطلوبة، وهو أن تتضمن مغزىً أو موضوعاً داخلياً. فالموضوع هو ما تدور القصة حوله، أنه السبب الذي وضعت القصة من أجله.

وبناءً على هذا يجب أن يتحلى الموضوع القصصي بميزتين:

١. العامل الاخلاقي، وذلك لأن الروائي يضع قيمه الخلقية ويبرز ناحية جديدة من نواحي الحقيقة استرعت اهتمامه عن طريق الموضوع الذي يجب أن يمتزج كلياً بالقصة.

فإذا كانت الفكرة أو الموضوع قريبة من السطح عند ذاك تصبح القصة مقالة كتبت لتوضيح فكرة من الأفكار وهذا ما لا نقصده.

٢. بالإضافة إلى الموضوع ينبغي أن يكون للقصة عنصر آخر وهو الموقف الروائي، والموقف الروائي هو أكثر من سلسلة حوادث وأحداث تجري خلالها القصة.

إذ لابد دائماً من وجود موقف عام شامل هو بمثابة القوة المحركة في القصة.



المبحث الثالث
القصة القصيرة

القصة القصيرة فن أدبي مرتبط بظهور وانتشار الطباعة والصحافة، وتطوير عصري لفن أدبي قديم هو فن الحكاية، مصاحب للتطوير العلمي الذي قدمته المطبعة والصحيفة لأدوات النشر والاتصال الجماهيرية.

وإذا استعرضنا الفنون الأدبية اليوم ومدى استجابتها للتطورات السريعة ومدى تعبيرها عن هموم العصر واليوم والساعة، لوجدنا أن القصة تنفرد بحضورها وحيويتها وحساسيتها لأنهما الفن الأدبي القادر على التقاط نبض العصر والتعبير عن التطورات الجارية في المجتمع، وهذا راجع إلى قالبها المميز بالقصر الذي يسمح لها بالنشر السريع في الأجهزة الاعلامية، كما أن قصرها يكفل لها أيضاً سرعة التلقي واتساع دائرة المتلقين. وأن هذه العلاقة الفريدة بين فن القصة القصيرة وجمهورها هي التي تجعل من هذا الفن أكثر الفنون الأدبية المعاصرة حساسية واستجابة لآلام الناس وآمالهم، ومن ثم فهي أكثر اقتراباً وصدقاً من صورة للحياة المعاشة.

ويغري قالب القصة القصيرة البسيط في ظاهره الكثيرين بكتابتها،

لذلك يبرز من بينهم القليلون الذين يستوعبونها كفن حساس وقالب شعري.

فليس المقصود بقصر القصة هو قصر حجمها فحسب، بل قصر زمنها ومحدودية شخصياتها أيضاً. فالقصة القصيرة قد تعبِّر عن العصر ولكن من خلال لحظة أو موقف كما ذكر الناقد الإيرلندي (فرانك اوكونور) في دراسته الهامة عن فن القصة القصيرة[1].

ومن هنا وصفت القصة القصيرة بأنها فن (اللحظة الهامة)، فإن اختيار هذه اللحظة من أدق خصائص القاص الذكي المبدع، تلك اللحظة التنويرية. ويعد قصر القصة القصيرة تكثيف هذه اللحظة وتركيزها وتقطيرها والعناية بكل كلمة وكل جملة بما يقترب من الصياغة الشعرية الجميلة الموحية، فلا توجد في القصة القصيرة شخصيات زائدة أو عبارات أو مواقف غير ضرورية. ويرى البعض: أن القصة القصيرة هي فن المجتمعات النامية التي تمر بتحولات اجتماعية وسياسية تهز نظمها وقيمها وأعرافها.

لذا نجد أن القصة القصيرة هي أسبق الفنون الأدبية الحديثة في الظهور والإنتشار وأكثرها تطوراً بعد الشعر ـ فن العرب الأول ـ، بالقياس إلى فن مركّز كفن الرواية الذي يرتبط ظهوره ونموه بنمو المجتمع وتعقّده وتشابكه، فلا شك أن الوقت الذي يتطلبه إبداع القصة القصيرة بالقياس إلى طول زمن إبداع الرواية مثلاً، له تأثير

---

(١) اوكونور ـ فرانك: الصوت المنفرد، ١٦، ترجمة: د. محمود الربيعي، نشر الهيئة المصرية العامة للطباعة والنشر، ط١، القاهرة، ١٩٦٩.

كبير في حيويتها وحساسيتها وتعبيرها الآني عن العصر، كما يساعد مجال نشرها بالصحف عن عصريتها ويسهل نشرها وتوصيلها. أضف إلى هذا سهولة التلقي، فقراءة القصة القصيرة لا تتطلب جهداً وعناءً ووقتاً مثل قراءة رواية أو مشاهدة مسرحية.

القصة القصيرة أوثق الفنون الأدبية التصاقاً بالخاص دون العام، وفي الحقيقة أن الفن يصور الخاص ليعبر عن العام، ولكن قالب القصة القصيرة المحدود لا يسمح بالمناقشات النظرية المسهبة في الموضوعات السياسية أو بالحوار المطول. وللقصة القصيرة مفاهيم متعددة ومتعارضة. وتأسيساً على ذلك، هناك من يرى: أن القصة القصيرة هي فن الرجل الصغير، أو الرجل العادي البسيط، فليس للقصة القصيرة بطل أو أبطال ولا تضم شخصيات شاذة أو خارقة بل فن رجل الشارع البسيط، إذ تلتقط من حياته أعظم اللحظات كثافة وتعبيراً عن حياته وأزماته وهي فن المعذبين في الأرض مادياً أو روحياً.

يرى الباحث الكريم (جمال المظفر) في بحثه عن القصة القصيرة والمنشور بتاريخ ٢٥/ ٢/ ٢٠٠٨م، أن القصة القصيرة تهتم بالموضوع والفكرة دون الإهتمام بالشخوص، خالية من الغموض، تتطلب صياغة متقنة من ناحية الحبكة وتوظيف الشخصيات وبنية الزمن والاسلوب والفضاءات، والإختزال فيها لايؤثر في التعبير. وتتحرك الشخصية في القصة القصيرة وفق فكرة وخيال القاص لاوفق شكلها العام أو تركيبتها، ويطلق عليها قصة (الضربة

الخاطفة) أو (الومضة) لا زمان لها ولا مكان إلا في ذهن كاتبها، الومضة التي تجعل القارئ أو المتلقي يتابع لحظتها الآنية ليحل شفراتها... ثم يقول:

إن القصة القصيرة جداً هي قصة الذروة الدرامية القاطنة في ذهن تخميني متمكن من صياغة نسيج لغوي درامي ناضج المعاني والصور والدلالات، ليس بالضرورة أن تحتوي على أساسيات كتابة القصة القصيرة كالإستهلال والعقدة والحل، لا تحتوي على مفردات زائدة لا تؤدي دورها في القص الفاعل.

إن القصة القصيرة جداً تأخذ شكل تسميتها، نص مختزل بدرجة كبيرة قد لا يتعدى أحيانا الخمس كلمات، والقاص البارع هو من يقدر أن يوصل الفكرة (الومضة) أو الذروة الدرامية إلى ذهن القارئ، أو بالأحرى إعادة ترشيح الضوء الصادر من قزحية العين إلى ألوان عدة تشكل ألوان الطيف الشمسي (الصورة الواضحة المعالم)، ليس كل فكرة قابلة لأن تكون قصة قصيرة جداً، وإنما الفكرة المنتقاة المقتنصة من حلم عابر أو مشهد درامي خاطف يؤثر في القارئ ويترك بصمة في ذهنه...

ثم أن الباحث يرى.. أن فن القصة القصيرة ليس بالسهل وقد يسيء إليه البعض فيقول: في هذه الرحلة مع عالم القص ومع جنس أدبي أثبت كتابه أن هذا النظام قائم بذاته كجنس أدبي يحمل استقلالية أجناسية ورؤيا خاصة، قد يسئ إليه بعض الدخلاء من الذين يعتبرونه فناً سهلَ الكتابة لا يحتاج إلى عناء أو جهد فكري،

مجرد أفكار أو هلوسات في اللاوعي كالإلهام والومضة الشعرية وأنه يمكن كتابتها بسهولة، هذا النوع من الكتاب هم من أساءوا إلى فن القصة القصيرة جداً ...



البحث الرابع
القصة الفلسفية

عرف العرب القصة الفلسفية كما عرفها اليونان من قبلهم. والمقصود بالقصة الفلسفية: أن تسبق الفكرة الأحداث التي قد يستمدها مؤلفها من تجاربه وملاحظاته أو حتى من قصص سابقة متداولة ثم يلبسها فكرته أو أفكاره الفلسفية.

ولعل من أبرز كتّاب القصة الفلسفية في القرن العشرين الكاتبان الفرنسيان (جان بول سارتر)، و (ألبيركامو)، حيث عبّر أولهما عن فلسفته الوجودية وثانيهما عن فلسفته العبثية.

وهذا النوع من القصص قد تطغى فيه الفكرة الفلسفية على الفن القصصي، وقد يكون فيه من الفن بقدر ما يكون فيه من الفلسفة، وقد يصل إلى درجة من الغموض والرمز بحيث لا يمكن فهمه إلاّ بعد الإستعانة بالشرح كما هو الحال في كثير من القصص الفلسفي الصوفي كما نجده عند السهروردي المقتول عام ٥٨٦هـ ـ ١١٩١م. في رسالته (أصوات أجنحة جبرائيل) وهي قصة على هيئة رؤيا يشرح فيها فلسفته الإشراقية، إذ يقرر مترجمها عن الفارسية صراحة أنه (لا مناص لنا من الاعتراف بأنه لولا الشرح الذي وضعه لها شخص

مجهول الاسم والذي كان لنا في هذا خير دليل لما كان في استطاعة فكرنا نحن أن نقوم بهذا الفعل من أول لحظة، ولأمكن أن تظل قيمة هذه التشبيهات مجهولة كأنها ألغاز ومعميات)[١].

ولا شك أن أشهر قصة فلسفية في التراث العربي هي قصة (حي بن يقظان) التي تناولها ثلاثة من المهتمين بالفلسفة هم: ابن سينا المتوفى عام (٤٢٨هـ ـ ١٠٣٧م) وابن الطفيل المتوفى عام (٥٨١هـ ـ ١١٨٦م)، والسهروردي المقتول عام (٦٦٥هـ).

وخلاصة حي بن يقظان لابن سينا أن جماعة خرجوا يتنزهون فبدا لهم شبح مهيب جميل الطلعة، قد أكسبته السنون والرحلات تجارب عظيمة، هذا الشيخ المهيب الوقور هو حي بن يقظان، ويرمز إلى العقل الذي يكتسب التجارب من السنين والرحلات أما الجماعة التي خرجت تتنزه فليست أشخاصاً إنما هي الشهوات والغرائز والغضب وسائر الملكات الإنسانية، ثم نشأت مجادلات بين الرفقة، وهي المجادلات التي تحدث عادة بين غرائز الإنسان وشهواته وضميره وعقله، وقد أدّت إلى سؤال العقل عن علم الفراسة (ويقصد به ابن سينا هذا علم المنطق) ويقول العقل إن هذه الرفقة التي تصحب الإنسان هي رفقة سوء، ومن ذلك أيضاً قوة التخيل التي رمز إليها بشاهد الزور، لأنها قادرة على تشبيه الشيء

(١) شخصيات قلقة في الإسلام: ١٣٧، ترجمة: د. عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٦م.

بالشيء زوراً وبهتاناً لإيقاع الإنسان في الشر وهو تشبيه باطل لا ينشأ عن عقل وحكمة[١].

ومن ناحية أخرى فإن ابن سينا في كتابه (الإشارات) أورد قصة بطلاها (سلامان وأبسال)، فقد ذكر أنه يشبه أن تكون تلك القصة من قصص العرب، فإن هاتين اللفظتين قد تجريان في أمثالهم وحكاياتهم.

وقد أورد ابن الأعرابي في كتابه الموسوم بالنوادر قصة ذكر فيها رجلين وقعا في أسر قوم أحدهما مشهور بالخير اسمه (سلامان) والآخر مشهور بالشر اسمه (أبسال) من قبيلة جرهم، ففدى سلامان لشهرته بالسلامة، وأنقذ من الأسر، بينما أسر أبسال لشهرته بالشر حتى هلك، وصار مثلاً في العرب يذكر خلاص (سلامان) وهلاك (أبسال)، وهذه القصة تدل على وجود هاتين اللفظتين في نوادر حكايات العرب.



(١) حي بن يقظان: ١٧ ـ ٢١، تحقيق وتعليق: أحمد امين، مؤسسة الخانجي، ١٩٥٨م.

البحث الخامس

الحـــــوار

الحوار هو المحادثة بين طرفين أو أكثر، وهذا كما لو تحدث شخص مع آخر أو كما لو تحدث شخص مع نفسه، ففي الحالتين: هناك طرفان يتم تبادل الحديث بينهما سواء أكان الطرفان شخصين أو شخصاً واحداً، كما أن الأطراف الحوارية قد تكون متعددة كما لو كان هناك ثلاثة أشخاص أو أكثر يتحدثون فيما بينهم.

ومن أمثلة الحوار بين طرفين: محاورة ابني آدم فيما بينهما عندما تُقبِّل قربان أحدهما ولم يُتقَبَّلُ من الآخر قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ * لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

ومن أمثلة الحوار بين الشخص ونفسه محاورة القاتل لأخيه عندما جهل كيفية مواراته حيث شاهد غراباً يقوم بعملية مواراة فتحدث مع نفسه قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ

---

(١) سورة المائدة: الآيتان ٢٧ و ٢٨.

كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[1].

أما النمط الثالث للحوار ـ وهو الحوارية المتعددة ـ فمن أمثلتها: محاورة ابنة شعيب عليه السلام مع أبيها. ومحاورة أبيها مع موسى عليه السلام. ومحاورة موسى مع شعيب في قضية الزواج. قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[4] وهو قول شعيب.

أهمية الحوار في القصة:

لا تنحصر أهمية الحوار في مجرد كونه جزءاً من سلوكنا اليومي، بل في كونه يتميز بخصيصة لا تتوفر في الأشكال الأخرى من السلوك ألا وهي: حيوية الحوار أي.. كونه تعبيراً حياً عن السلوك، فالكلام هو مفتاح الشخصية بحيث يعبّر عن سماتها وأفكارها ومزاجها بعكس الأشكال الأخرى من السلوك مثل: الأكل، النوم،

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣١.
(٢) سورة القصص: الآية ٢٦.
(٣) سورة القصص: الآية ٢٧.
(٤) سورة القصص: الآية ٢٨.

المشي... حيث لا تمتلك هذه الحركات نفس الحيوية التي يمتلكها كلام الناس. ولهذا السبب احتل الحوار في الأعمال الأدبية مساحة كبيرة حتى أن بعض الأشكال الأدبية كالمسرحية اعتمدت ـ أساساً ـ على عنصر الحوار وحده أي أن المسرحية يقوم هيكلها الخارجي على محاورات بين الأشخاص، وهذا هو أحد الفوارق الذي يميزها عن القصة.

والقصة تعتمد الحوار بشكل رئيس ـ أيضاً ـ وهي لا تنحصر في ذلك، بل تعتمد السرد أيضاً، أي: الإخبار عن الشيء أو وصف الشيء، بحيث تجد قصصاً تعتمد الحوار وحده، وقصصاً تعتمد السرد وحده، وقصصاً تعتمد الحوار والسرد كليهما. والمهم أن كلاً من المسرحية والقصة تعتمدان الحوار عنصراً لها[1]. والمهم أيضاً أن سائر الأشكال الأدبية تعتمد الحوار لنفس السبب وهذا ما نجده بوضوح في النص القرآني الكريم حيث أن الحوار يمثل مساحة ضخمة من نصوص القرآن لا تقف عند النصوص القصصية وحدها، بل تتجاوزها إلى مطلق النصوص.

ويمكننا إجمال وظائف الحوار بما يأتي:

١ ـ الكشف عن الشخصية:

لعل من أهم وظائف الحوار هو كشفه عن نمط الشخصية من

(١) الدكتور محمود البستاني: القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي، ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

حيث أفكارها ومزاجها وانفعالاتها، فقد عرفنا مثلاً من خلال الحوار أن أحد ابني آدم يحمل نزعة الحسد، كما ويحمل نزعة عدوانية أفضت به إلى أن يقتل أخاه، عرفنا ذلك من خلال قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[1].. كما عرفنا أن أخاه يحمل نزعة (الحب) والمسالمة والتقوى بدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2]، فالحوار هو الذي عرّفنا بهذا الشخص وأنه يحمل نزعة التقوى على العكس من أخيه.

٢ ـ الكشف عن الحوادث:

من الوظائف المهمة للحوار الكشف عن الحوادث أو المواقف من حيث نشأتها ونهايتها وتفصيلاتها، فعندما يتحدث موسى عليه السلام مع فتاه: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾[3] نستكشف حادثة السفر إلى مجمع البحرين. وعندما يقول عليه السلام لفتاه: ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾[4] نستكشف بأن السفر طوي وأنه قد حُفّ بالمتاعب، وعندما

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢٧.
(٢) سورة المائدة: الآية ٢٨.
(٣) سورة الكهف: الآية ٦٠.
(٤) سورة الكهف: الآية ٦٢.

يقول عليه السلام لفتاه: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾[1] نستكشف أن الزاد من هذه الرحلة قد كان حوتاً.

وهكذا بالنسبة إلى حوادث خرق السفينة وقتل الطفل وبناء الجدار، حيث استكشفنا من خلال محاورة الخضر عليه السلام أن السفينة كانت لمساكين يعملون في البحر ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[2]. وأن قتل الطفل يرتبط بكون أبويه مؤمنين ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا﴾[3]. وأن الجدار كان ليتيمين ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[4].

وهكذا نجد أن حوار موسى عليه السلام وفتاه والخضر عليه السلام قد كشف عن جملة من الأحداث والوقائع المقترنة بما هو خطير ومهم عبادياً.

٣ ـ الكشف عن الأسرار:

هناك من الأسرار الداخلية للشخص لا يمكن التعرف عليها إلاّ من خلال الإعتراف الذي يصدر من الشخص. وهناك جوانب أخرى من السلوك لا يمكن التعرف عليها إلاّ من خلال الحوار الداخلي من نحو الحوار الذي أجراه النص القرآني على لسان علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام في قولهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[5] فهذا الحوار لم يوجه إلى المسكين واليتيم والأسير

---

(١) سورة الكهف: الآية ٦٣.
(٢) سورة الكهف: الآية ٧٩.
(٣) سورة الكهف: الآية ٨٠.
(٤) سورة الكهف: الآية ٨٢.
(٥) سورة الإنسان: الآية ٩.

ليكون حواراً خارجياً بل هو كلام داخلي أو أحاسيس صدرت عنهم عليهم السلام لم تتجاوز نطاق التفكير. وبهذا يكون الحوار الداخلي قد كشف أسراراً داخلية لا يمكن معرفتها إلاّ من خلال الحوار المذكور.

وإذا عدنا للحوار الداخلي فإننا نجد أن كثيراً من الأفكار والأحاسيس والنوايا والنزعات لا يمكن معرفتها إلاّ من خلال اعتراف الأشخاص أنفسهم، وبما أن الإنسان بعامّة لا يسمح بإبراز أسراره الداخلية أمام الآخرين، لذا فإن طبيعة ردود الأفعال التي تصدر عن الإنسان حيال مواجهته لمختلف المنبهات تفرض عليه أن يفكر بها وأن يحياها ويتدارسها أو ينقدها أو يعجب بها. أما المسوغ للحوار الداخلي فيتمثل في جملة أمور منها:

أن هناك أفكاراً فاسدة يحياها الشخص لكنه لا يستطيع إبرازها إما خوفاً من الآخرين أو خجلاً منهم، كأفكار المنافقين الذين يخشون الفضيحة ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾[1] حيث يضطرون إلى أن يتحدثوا مع أنفسهم بمثل هذا الكلام خوفاً من الآخرين.

ومن نحو محادثة قوم إبراهيم عليه السلام مع أنفسهم عندما سألوا إبراهيم عليه السلام عمن حطّم أصنامهم وأجابته بأنه قد فعل ذلك كبيرهم ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2] فقولهم لأنفسهم

(١) سورة البقرة: الآية ١٤.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٦٤.

أنتم الظالمون هو حوار داخلي فرضه الخجل من إبراهيم عليه السلام الذي كشف تفاهة سلوكهم.

كما أن أفكاراً إيجابية يحياها الشخص دون أن يجد ضرورة لإبرازها لأنها تعبير عن أفعال من أجل الله تعالى كمحاورتهم عليهم السلام أنفسهم عندما أطعموا مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[1].

فبالرغم من أن صيغة ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ تبدو كأنها لهؤلاء الأصناف الثلاثة إلاّ أنها أفكار يحيونها داخلياً وقد تشربوا بها نطقت بها أفكارهم.

وربما يكون المسوغ للحوار الداخلي أن هناك أفكاراً خاصة تخطر على ذهن الشخص وهو يواجه حقيقة من حقائق الحياة ومثال ذلك قول من مرّ على قرية خاوية فقال متحدثاً مع نفسه ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[2] حيث يمثل هذا النوع من الكلام خطرات ذهنية وهي بطبيعة الحال لا تحتاج إلى طرف آخر توجه الكلام إليه سوى الشخص ذاته.

وهناك أفكار خاصة تمثل ردود الفعل التي يواجهها الشخص في موقف معيّن يضطره إلى أن يتحدث عن نفسه: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾[3] حيث تضطر الشدة التي يكابدها المنحرف إلى أن يخاطب نفسه بما تقدم من الكلام.

---

(١) سورة الإنسان: الآية ١٠.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٩.
(٣) سورة الحاقة: الآيتان ٢٥ ـ ٢٦.

إن موضوعات الحوار في القصص القرآني ـ غالباً ـ هي الموضوعات الدينية، وهي الموضوعات التي بسببها قام بين النبي ﷺ وقومه جدل عنيف وتلك من أمثال الوحدانية والبعث وكون الرسل من البشر وليسوا من الملائكة وإحداث الأمور الخارقة أو المعجزات للدلالة على النبوة وغيرها...

وطريقة القرآن في تصوير الحوار تقوم على أساس الرواية، فيحكي القرآن أقوال الأشخاص ويصدرها بقوله قال أو قالا أو قالوا.

وهذا التصدير يلفت الذهن إلى أمر خاص بالحوار في القصص القرآني هو أنه ليس من اللازم أن يقوم الحوار بين اثنين، فقد يكون كثرة. وكل هذه الأمور ملحوظة في القصص القرآني، فيكون الحوار بين اثنين كالحوار بين إبليس وآدم عليه السلام، وبين إبراهيم عليه السلام وأبيه، وبين موسى عليه السلام وفرعون، ويكون بين واحد من طرف واثنين من طرف آخر، كما هو الواضح في قصة موسى عليه السلام.. فقد كان موسى عليه السلام الركن الثاني من أطراف المحاورة. وقد يكون بين واحد من طرف وجماعة من طرف آخر كالحوار الواقع في أكثر القصص القرآني بين الرسل وأقوامهم من مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[1].

(١) سورة هود: الآيات ٢٥ ـ ٢٦.

والقضايا التي يعتمد عليها القرآن في حواره ترجع في الغالب إلى المسلمات الدينية أو المسلمات بحسب العرف والبيئة، ومن هنا تقوم على أساس اللذة والألم أو المنفعة والمضرة وأنهما بيد الإله المتفضل يمنّ بهما على عباده كل وما يستحق...[١].



(١) يلاحظ لذلك مفصلاً: محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم/ ٣٢١ ـ ٣٢٥، الطبعة الرابعة، مؤسسة الانتشار العربي.

البحث السادس
الأسطـــورة

عمد الإنسان في فجر التاريخ إلى الاسلوب الجذّاب في بث أغراضه ونشر مبادئه وتكييف الوضع الحاضر وفق إرادته وميوله وهو لا يعرف سكوناً في حالتي يقظته ونومه، وإنما يدرج إلى العمل فيظهر في العالم الطبيعي بحواسه الظاهرة فيعمل فيها ويستجلي الأشياء بدقة وبغريزة حب الاستطلاع، حتى إذا ما أغلقت دونه أبواب الحس أخذ يتمثل ما انعكس لديه من الأشياء في اليقظة فتطوف في بحر النفس مقلوبة أو معادلة حسبما تقتضيه كثافة الأخلاق وخفتها.

فهو في شغله وبطالته مفتقر طبعاً إلى التسلية والاستراحة، إذ النفس لا تطمئن إلى السكون بل لا يزال فيها طموح نحو المعرفة واللذة.

وربما كان أول الجذور في حقل ـ الأقصوصة الخيالية ـ ما كان يستعرضه الرجل والمرأة في ظلال الليل المظلم من المشاهدات والخيالات ليحاربا جوع القلق على وميض النار أو في أجواف الكهوف. ولم يكن هذا الإنسان الذي ترقى عقليته يوماً فيوماً ليقنع

بهذا القدر اليسير فقد أخذ يخلق من عنده أشياء جديدة ويذكي نشاطه لتكرار العملية اعجاب السامعين واصغائهم له.

ويعد هذا الابتكار أول بذور الأدب الخيالي الذي تشعب بعد ذلك إلى منثور ومنظوم، ومنذ تحضر الإنسان واتسعت مخيلته بالاكتشافات التي كانت تجدد لديه أخذ يحفظ ما بحقيبته من آثار ومواهب ليتغذى به في ساعات الفراغ، وأخيراً عجز عن حفظها فاحتسبها على قطع من الصخور والاخشاب والجلود لتكون مرجعاً وموئلاً. فكانت هذه الأساطير مادة لأدبه، وفكره وفلسفته.

فما هي الأسطورة، وما مديات وجودها في الفن القصصي؟

الأسطورة هي حكاية إله، أو بطل خارق، تحاول أن تفسر بمنطق الإنسان الأول وبخياله أو وهمه ظواهر الحياة في عالم موحش، يثير دائماً السؤال من أجل المعرفة، ويقترح الجواب. وهي في كل أولئك تتضمن وجداناً جماعياً تقبله من أجله الأجيال بسهولة. وتتمثل شكلها التمثيلي بوضوح، وكذلك ترددها بطقوسها، وشعائرها قبل أن تتحول إلى الفلوكلور بأحد أشكاله المعروفة.

فالأسطورة ـ على هذا ـ ثمرة جهود الإنسان في فهم الكون، وفي تسمية ظواهره، وتحديد أماكنه، كما هي الحال في (ملحمة كلكامش) التي كتبت منذ خمسة آلاف سنة لتحكي أفكاراً عن المجتمع السومري في المدن السومرية القديمة كما تحكي عن الآلهة وعن طموح الإنسان إلى الخلود والحياة والمغامرات والتجربة.

والأساطير مصدر للمعارف الإنسانية. ومن هنا، ترتبط الاسطورة

ـ دائماً ـ ببداية الناس، أو ببدائية البشر. فالأسطورة تمثل السعي الفكري الذي تحقق على مدى التاريخ من أجل تفسير الكون، وتعليل مشكلات الحياة، وقضايا الإنسان وتحقيق أحلامه وخيالاته.

فالأسطورة ـ على هذا ـ ضرب من الفلسفة، أو هي عملية تأمّل من أجل إجابة عن أسئلة، مبعثها الاهتمام الروحي بموضوع ما.

والأسطورة على أنواع:

الأول: الأسطورة الطقوسية، وهي التي ارتبطت ـ أساساً ـ بعمليات العبادة، مهما يكن شكلها وطريقتها، وعنيت برصد الجزء الكلامي من الطقوس قبل ان تصبح حكاية لهذه الطقوس.

الثاني: الأسطورة التعليلية، وهي التي وجدت طريقها إلى الوجود بعد أن ظهرت فكرة وجود كائنات روحية خفية في مقابل ما هو كائن من الظواهر الطبيعية كالرعد، وانفجار البركان، وانشقاق الأرض عن الزرع، ويبدو أن طائفة من رجال الدين استطاعت أن توهم (الجماعة) بأنها على اتصال بهذه الكائنات الغيبية، فوجد السحر وتمكن التعليل الأسطوري أن يتحدر من سيطرة الشفيع أو الوسيط. على أن هذا التحرر العلمي لم يجيء إلا متأخراً، بمعنى أنه سار في مرحلة متأخرة نسبياً من تاريخ الدين. وباختصار: فإن التعليل كان بداية العلم قبل الفلسفة.

الثالث: الأسطورة الرمزية، وهي أكثر تعقيداً من المراحل التي قطعتها أساطير الطقوس والتعليل، أو لعلها أكثر قرباً من الأسطورة

التعليلية بوجه عام، لأنها تعبر بطريقة مجازية عن فكرة دينية أو كونية.

الرابع: التاريخسطورة، وهي تاريخ وخرافة معاً، فهي تتضمن عناصر تاريخية ومجموعة خوارق تأخذ إطار الحكاية، وهذه الحكاية ـ لأنها ـ تتعلق بمكان واقعي، أو بأشخاص حقيقيين ـ تنقل بالتواتر من جيل إلى جيل.

وقد تعددت الأقوال في أصل الأسطورة، نستطيع إدراجها في أربع نظريات:

الأولى: دينية. تقرّر أن حكاية الأساطير كلها مأخوذة من الكتاب المقدّس مع الاعتراف بأن هذه غيرت أو حرفت.

الثانية: تاريخية. تذهب إلى أن أعلام الأساطير عاشوا حقيقة بسلسلة من الأعمال لفتت إليهم الأنظار، وعلى الأيام أضيف إليهم من خلال الشعراء ما وضعهم في ذلك الأطار العجيب الذي يتحركون فيه.

الثالثة: مجازية. وتقوم على أن كل أساطير القدماء لم تخرج عن أن تكون في شتى أشكالها الدينية والأخلاقية والفلسفية والتاريخية مجرد مجازات فهمت حرفياً.

الرابعة: طبيعية. وبمقتضاها تشخص عناصر الكون من هواء، ونار، وماء، أو تتحول إلى كائنات حيّة أو تختفي وراءها مخلوقات خاصة.

وعلى هذا وجد إزاء كل ظاهرة طبيعية ـ ابتداء من الشمس حتى أصغر مجرى ماء ـ كائن روحي معيّن.

على أن هذه الأنواع من الأساطير، ليست محدودة تماماً ـ كما رأينا ـ فهي دائمة التداخل ولا سيما إذا اتخذت أشكالاً متعددة للحكاية، ومن ثمّ يتعين علينا أن نعيد التقسيم على أساس نوع الحكاية نفسها، وليس على أساس طبيعة الأسطورة، ومضمونها وعلى النحو التالي:

١: حكايات الشعائر والطقوس.

٢: حكايات التاريخ الأسطوري. وهي التي تمزج الحقائق اللافتة في تاريخ الإنسانية بالأعاجيب والخوارق، ثم تخرج من هذا المزيج قصة شعبية تتناقلها الأجيال، وتغيّر فيها، فتتعدد رواياتها ويتلاشى الواقع بالتدريج.

٣. الحكايات الرمزية. وقد ظهرت في الشعر الحديث مؤخراً على نطاق واسع. ومن أشهر أنماطها حكايات الجن والعفاريت، ويقبلها الصغار والكبار على حدّ سواء، لأنها تفترض وجود حضارة راقية إلى حدّ ما، كما تفترض قيام تنظيم اجتماعي قد يوصف بأي وصف إلا البدائية والانحطاط.

٤: حكايات الآلهة الكبرى. وتفترق عن غيرها في أنها لا تتضمن عناصر تاريخية، ولا تعرض لنظام القبيلة ولا لسياستها، ولا تقف عند المعتقدات الدينية، أو تصف القوى السحرية المختلفة.

٥. الحكايات الخرافية. ومحورها أمور خيالية خارقة للطبيعة. وكلها يستخدم عناصر من بقايا معتقدات موغلة في القِدم.

وبالبحث المقارن ثبت أن هذا النمط من الحكايات يكون المضمون الوحيد لأقدم صور التأليف الأدبي المعتمد على الأساطير، وهَدَفَ ـ دائماً ـ إلى خلق نوع من التوازن، او الإنسجام مع الواقع بحيث يصير اللامعقول معقولاً[١].

وتميز العالم القديم بسيطرة الأسطورة لعدم معرفة إنسان العهود القديمة بالدين والعلم ولنقص التجربة وانعدام الخبرة وعزلة ذلك الإنسان في غابة أو قرية أو جبل أو برية. ولمقاومة الحالة المادية التي كان يعيشها اضطر إلى اللجوء للأسطورة ليملأ الجوانب الخالية من الروح وهو يعيش على وميض النار أو في أجواف الكهوف.

ويعد هذا الابتكار أول بذور الأدب الخيالي الذي تشعب بعد ذلك إلى منثور ومنظوم، ومنذ تحضر الإنسان واتساع مخيلته بالإكتشافات التي كانت تجدد لديه وصار يعيش في تجمعات بشرية هي عبارة عن مدن صغيرة أخذت تتوسع وتتحد لتكون أول الدويلات التي سميت دويلات المدن وكانت نشأتها التاريخية في جنوب العراق مثل الوركاء وأريدو ونفر وأور ولكش. ومن هذه الحياة المدنية الأولى ظهرت ملحمة كلكامش التي تعد أول ملحمة

(١) يلاحظ لذلك مفصلاً: كارين أرمسترونغ: تاريخ الأسطورة/ ترجمة: الدكتور وجيه قانصو، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم. والدكتور أحمد كمال زكي: الأساطير دراسة حضارية مقارنة/ دار العودة ـ بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٧٩م.

قصصية في تاريخ آداب الأمم والشعوب. وقد طغت الأسطورة وطغى الخيال على الملحمة مع اختلاطها بحقائق تاريخية ووقائع حقيقية شهدتها تلك المدن. فكلكامش كان أحد ملوك الأسرة السومرية الثانية وكان حاكم أوروك.

وفي الملحمة وصف لمغامرات كلكامش وصديقه أنكيدو. كما نجد فيها أسئلة الموت والحياة والبحث عن الخلود ودور الآلهة في ذلك وموقع البشر بالنسبة لحكم الآلهة وذلك قبل أن تهبط الأديان السماوية على البشر.

كما يمتلك الإغريق ملحمة الإلياذة التي تخلط ما بين وقائع حرب طروادة وبين الأساطير التي كانت شائعة آنذاك حول البطولة والإجتراحات الإستثنائية لأبطال الملحمة.

مثلت الأسطورة الداعم المعنوي للإنسان وهو يشق طريقه في مراحل تطوره، فكانت تقدم إليه الذخيرة النفسية لمواجهة المصاعب والظروف القاسية، وتضع له القواعد ليتخطى المعوقات وتدفعه إلى البحث المتواصل عن الأفضل، وتوحي له بعدم اليأس وبأن هنالك دائماً أبواباً أخرى إذا استنفدت السُبل، فحيثما تداخلت الأشياء تقدم الأسطورة الحلول لتوضيح وتعليل الغوامض، فوجدت نتيجة لذلك أنماط مختلفة من التفسيرات الخيالية واللاهوتية التي قدّمت الحل في لحظات عجز منطق التجربة والتأمل البسيط[1].

(١) ياسين خليل: منطق المعرفة العلمية/ ١٨، منشورات الجامعة الليبية.

ولقد كانت آلية التعامل الوسيلة الفعّالة في هذا الإتجاه، تعزّزها المعارف التجريبية البسيطة التي أثمرت عن القواعد المنطقية الأولى في الفلسفة الإنسانية(١).

ولذلك يعبّر (ليفي شتراوس) عن الأسطورة بقوله: (إنها أقصر الوسائل الممكنة إلى فهم عام للعالم)(٢).

وقد قدم لنا عدد من الباحثين عدد من وجهات النظر بالنسبة للعلاقة بين الأسطورة والإنسان، منها:

١. يرى (السير إدوارد بيرنت تايلور) في كتابه (الحضارة البدائية): أن الإنسان البدائي يتملك القابلية على جمع الظواهر والأفكار المجردة، وإعادة تشكيلها ليبلور مواقف معينة تجاه القضايا الكبرى التي تعترض حياته مثل: الموت، والحياة، والليل، والنهار... ويرى أن لدى البدائي اعتقاد راسخ بوجود الكائنات الروحية التي تؤثر في مجرى الوجود. ويرى أيضاً: أن البدائي يفكر مثل أي فيلسوف في العصر الحديث، مع اعتماد منطق بدائي بسيط(٣).

٢. وفي اتجاه معاكس لما جاء به (تايلور) يرى (ليفي بريل) في كتابه (الوظائف العقلية في المجتمعات المتخلفة) إنه من العبث البحث عن مقاييس مشتركة بين عقلية البدائي وعقلية المتحضر، ذلك

(١) ثامر مهدي: من الأسطورة إلى الفلسفة والعلم/ ١٢.
(٢) كلود ليفي شتراوس: الأسطورة والمعنى/ ٣٦، ترجمة: شاكر عبد الحميد.
(٣) ارنست كاسيرر: الدولة والأسطورة/ ٢٥ وما بعدها.

لأن العقليتين لا تتبعان الأساليب المنطقية نفسها، فالعقلية المتحضرة تستند إلى قواعد ثابتة، ومسلّمات مفروغ منها جدلاً، أما البدائية فما تزال تمثل لنا غموضاً قائماً، والقواعد التي تحتكم إليها تبدو مشوشة، فلا تظهر لديها أنماط فكرية مثل الإستدلال والبرهنة ويطلق (بريل) على هذا النمط من الذهنية تسمية: (العقل الغيبي) إذ يرى أن البدائي يعيش في عالم مغلق لا نستطيع النفاذ إليه[١].

وفي هذا الإتجاه تبدو الأسطورة محض خدعة واعية، ووهماً كبيراً يترتب[٢] بحسب تركيبه ومنطق العقل الإنساني من دون أن يؤثر ذلك في ديناميكية العقل أو سلامته أما النقلة الأهم في هذا الإتجاه، فقد جاءت عند انبثاق نظرية التحليل النفسي على يد (سيجموند فرويد) التي رأت في الأسطورة مظهراً من مظاهر الإسقاطات النفسية التي تعبّر عن رغبات وحاجات مكبوتة تتخذ اتجاهاً معيناً حين تترجم على أرض الواقع.

إن تحديد مفهوم الأسطورة لا يخلو من صعوبة ويرجع ذلك إلى سببين:

أولاً: يعود إلى طبيعة الأسطورة وبنيتها، وتداخل عناصرها.

ثانياً: يعود إلى تعدد وجهات النظر إلى الأسطورة واختلاف مناهج دراستها.

---

(١) المصدر المتقدم: ٢٦ ـ ٢٧.
(٢) المصدر السابق: ٣٥ ـ ٣٦.

يرى (جيمس فيرزر) أن الأسطورة قد استمدت من الطقوس، فبعد مرور زمن طويل على ممارسة طقس معين وفقدان الإتصال مع الأجيال التي أسسته يبدو الطقس خالياً من المعنى ومن السبب والغاية، تُخلق الحاجة لإعطاء تبرير لطقس مبجل قديم لا يريد أصحابه نبذه أو التخلي عنه[١].

ويتفق (كاسيرر) مع هذه الآراء إذ يرى أن تحديد مفهوم الأسطورة يجب أن ينطلق من الطقوس القديمة، فهي القاعدة الأولى التي انبثقت عنها الأساطير وأن فهم الطقوس يقود إلى إدراك مفهوم الأسطورة[٢].

إن علاقة الأسطورة بالفن القصصي وثيقة، وخاصة بالأدب الشعبي، فإن الأساطير كثيراً ما تتحول إلى محاور رئيسية تعاد صياغتها في حكاية شعبية بعينها، أو في أكثر من حكاية، كما أن السير الشعبية، أهم منطقة يلتقي فيها الفلكلور (الأدب الشعبي) بالميثولوجيا (الأسطورة). ويكون على الباحث في الأساطير أن يعنى بالشكل القصصي أو التسجيلي عنايته بالشعائر والطقوس. وتوشك هذه العناية أن ترجح الإرتباط العضوي بين المحتوى القصصي والأعمال التي تحاكيها طبقاً لقواعد مقررة في التراث الديني للشعوب القديمة.

ويعنينا من هذا التحديد أمران:

---

(١) فراس السواح: مغامرة العقل الأولى/ ١٢.
(٢) الدولة والأسطورة: ٤٤.

أولهما: إن الأساطير وما يدخل في بابها من الحكايات الخرافية تنطوي اليوم على عادات، ومعتقدات ظلّت حيّة على الرغم من تقادم العهد بها وتظهر دائماً في النتاج الفني وبخاصة الأدب، رفيعاً كان أو عادياً.

وثاني ما يعنينا ـ هنا ـ أن القصة التي خصصها الشعب للإعراب عن نفسيته وحاجاته تتضمن وجداناً جماعياً، يمكن أن يطل على الأدب صاحب الإنتاج الرفيع.

لقد لحظ أصحاب علم النفس التحليلي أن الأسطورة، والخرافة، يمكن أن تكون بمثابة أعراض تدلّ على وجود حقائق أخرى، فتبدو ـ من هنا ـ رموزاً لظواهر نفسية لا شعورية تمثّل قوى تتحكم في مسيرة الفرد وسلوكه الاجتماعي.

إن القيّم المنشئة، هي النماذج العليا، التي يرتبط بها الناس في كل مكان وهذه تدخرها الأساطير وما يجري مجراها بالقدر التي تدّخره الذاكرة غير الواعية، وتبدو هنا مكمّلاً لشخصية الأديب ـ شاء أو لم يشأ ـ من حيث هي واقع تاريخي يمتصّ كل ما حوله من مظاهر ثقافية واجتماعية.

فالفن القصصي يعتمد الأساطير، لا من حيث أنها حكايات آلهة، أو كائنات خارقة تفسّر ـ بمنطق الإنسان الأول ـ أوليات المعرفة، وظواهر الكون، ولكن من حيث إنها الحكمة الأخلاقية التي تتحكم اليوم في أقدار الناس، وأعمالهم.

إن الموروث الأسطوري من حكايات وروايات يحيط بالأبعاد

الأسطورية من حيث هي شعائر وطقوس ودلالات كونية ـ اجتماعية، وتفسيرات ميتافيزيقية للموجود الأول ومخلوقاته، فهو ـ على هذا ـ يظلّ معطى أسطورياً، لكنه يعكس وقائع أولى في الحياة البشرية ويقدم معرفة عن أنماط التفكير البشري البدائية، وقد استفاد علم الأجناس مثل علم الإجتماع من الأسطورة للتعرف على حياة المجتمعات الأولى سواء كانت مجتمعات القرية أو مجتمعات المدينة.

فالأسطورة يمكن أن تكون إطاراً لأعمال قصصية ناجحة، وهي ـ هنا ـ تثري نوعاً أدبياً، ما زال بحاجة إلى تطوير وإغناء.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: إذا كانت الأسطورة ركناً من أركان القصة، فكيف يمكن استغلال المادة القديمة فنياً؟ بمعنى: ما السبيل إلى توظيف الأسطورة في بناء القصة؟

للجواب على هذا السؤال نقرّر:

أن الأسطورة تنتقل بسهولة من جيل إلى جيل، فالمادة الأسطورية جاهزة، وما على الكاتب إلا صياغتها. فإن الأسطورة تظل أكثر عطاءً، وأسهل تداولاً بصياغتها قصصياً. ولابد من القول ـ هنا ـ إن معطيات الأساطير لابد أن تتشكل، وتتغير، ولا يصبح النظر إليها على أساس كونها أساطير فقط، عندئذٍ تصبح الأمور أكثر تعسّفاً بل أكثرها بعداً عن الجادة.

ويبقى السؤال: هل يحسن الإقتصار على إبراز الحقيقة في الفن القصصي، أم ينبغي مزج الحقائق بالخيال مزجاً يتجلّى فيه الواقع؟

الظاهر، أن كل ما ينتجه الخيال متمشياً مع المنطق السويّ، حسن، إذا لم يقتصر عليه في تغذية الفكر. وهذا ما عليه الغرب ـ اليوم ـ من التنوع في أساليبه، وله فيه صوت عالٍ. وكذلك هذا ما دأب عليه القرآن الكريم ـ كتاب الله ـ على إفراغ شحنة الإنفعالات بالطقوس الجاهلية وملء النفس بأحكام التوحيد، وشعائره الجديدة. إلا أنه يكشف عن تحوّل أساطير الأوّلين ـ من حيث دلالتها على معتقدات المشركين ـ إلى مادة دينية في ضوء تغيير حضاري مطلوب.

وقد وردت الأسطورة في القرآن الكريم في موضعين وهي تحمل المعنى اللغوي نفسه في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[١]، وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[٢].

فدلالة الأسطورة في اللغة تؤشر معنيين:

الأول: أنها أحداث وقصص حدثت في الزمن الماضي البعيد.

الثاني: أنها تفتقر إلى التوثيق، ولا يمكن الجزم بصدقها أو كذبها لأنها تتضمن انزياحاً نحو الخيال والخروج على المعتاد.

إننا نرى أن الأسطورة لا يمكن أن تعرّف من خلال حدود جاهزة، أو تركن إلى نمط معين من الدراسات، لأنها أوسع وأشمل

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٣١.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٥.

من ذلك فهي لا تمثل (وهماً، ولا كذباً، وإنما هي تجربة وجودية، كان يعانيها الإنسان البدائي)[١].

وفي هذا الإطار يمكننا أن نعرف الأسطورة بأنها: نمط بدائي من الوعي الإنساني الذي يتفاعل مع الوجود بطريقة تصورية نابعة من الخيال محاولاً إرساء فهم وتعليل لظواهر الوجود والعلاقات التي تحكمه من خلال توظيف قوى الإدراك والوعي الإنساني، لتتشكل في إطار قصصي تتخذ من أبعاد الخيال واللامعقول عالماً لها، محافظة على هامش من الإرتباط بالعالم الواقعي.

ولم يكن للعرب ملاحم مكتوبة ولكن كانت هناك الروايات الشفهية المتناقلة عن حروب داحس والغبراء والبسوس والفجار. وكانت تروى تحت عنوان (أيام العرب) وهي قصص روائية فيها من الوقائع والأحداث أكثر مما فيها من الأسطورة دون أن تغيب بعض الأساطير عنها. وكان الشعر المروي فيها يشكل مادة أساسية في بنية القص التي تجعل الراوي قادراً على تنويع الأسلوب.

وأخذ الشعر مكان القصة بعد ظهور الإسلام، إذ من خلال هذه الشعر نستطيع التعرف على البطولات والمفاخر والعادات والشخصيات من مدح وذم وهجاء وفخر. وبتطور المجتمع العربي والإسلامي واتساع الرقعة الجغرافية وتنوع طرز العيش والحياة ونشاط التجارة وظهور المعرفة العلمية في الطب والكيمياء ونشاط

---

(١) الدكتور خليل أحمد خليل: مضمون الأسطورة في الفكر العربي/ ١١، بيروت، دار الطليعة والنشر، ط١، ١٩٧٣م.

حركة الترجمة والتفاعل الثقافي شهد الأدب العربي فن القص من خلال ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة، كما أخذ القصص القرآني دوره في تفاسير القرآن مما استدعى رواية أحداث لم ترد في القرآن ولكنها تخص الشخصيات والأحداث التي ترد في قصص القرآن مما وسع الأفق القصصي والمعرفي.

الأساطير الدينية

شغل التفكير الديني شطراً واسعاً من هاجس الفكر البشري والحضارة الإنسانية، وأثّر بشكل مباشر وغير مباشر في مجمل النشاطات الإنسانية ذلك لأن الدين يمثل استجابة واعية لحقيقة ارتباط الإنسان بالله تعالى، هذا الإرتباط الذي اتخذ مراحل متعددة، تباينت بين إدراك الإله الواحد، وبين الخوض في اعتقادات واسعة تقترب من فكرة الإله الواحد وتبتعد عنها أحياناً.

يعبّر الدين عن إدراك ووعي سيكولوجي لحالة من السيطرة التي تفرضها قوة مطلقة على جميع عناصر ومكونات وقوى الطبيعة من أجل إيجاد نظام وتناسق وانسجام لجميع مكونات الوجود، والحاجة لهذا النظام يمكن إدراكها والحدس بها من دون إبداء تصور تام له.

وانطلاقاً من عملية خلق التصورات والتأويلات التي تندمج فيها قوى الطبيعة مع تصورات الإنسان ولدت الأساطير الدينية[١].

وهي أساطير لا تسبح في (خيال لا ضابط له بل تسير في

---

(١) محمود سليم الحوت: في طريق الميثولوجيا عند العرب/ ٣٦، بتصرف.

مسارات محددة من الفكر الخلاّق، فعندما تصبح الحقيقة ليست مجرد شيء يُرى ويُتأمل، بل لمحة خاطفة محملة بعواطف الخوف والأمل والفزع والرغبة، عندئذ يبحث الإنسان عن الشيء أو الموضوع الذي يمكن أن يرى فيه نوازع نفسه)[١].

وفي هذا الإتجاه اتخذت الأسطورة الدينية وظائف مهمة منها:

١. التفسير: تولت الأسطورة الدينية مهمة تفسير ماهية القوى التي تقبع في عوالم ما وراء الطبيعة.

٢. التنظيم: تقدم الأسطورة الدينية وصفاً مادياً للأشياء وتتولى عملية تنظيم أدوار قوى الكون المهيمنة.

٣. البحث الفكري: تمنح الأسطورة الدينية دوراً فاعلاً للإنسان وتمنحه فرصة التقدم في عملية البحث الفكري، والإنتقال من مرحلة التخبط إلى مرحلة تنظيم الأفكار والتصورات وإيجاد أطر تنظيرية للغيبيات، وقد مرّت هذه المرحلة بتطورات طويلة أدت إلى الوصول إلى رؤى ثابتة، تمخضت عنها الأساطير الدينية فيما بعد[٢].

نخلص من ذلك إلى نتيجة مهمة، مؤداها أن الدلالات الدينية التي تركزت في الأساطير القديمة قد انبثقت من خلال منهج منظم استقى من التاريخ روحه، مع أن هذا التاريخ احتفظ بها بطريقة خلطت بين الخيال والحقيقة في عملية توثيق بعض المراحل.

---

(١) الدكتورة نبيلة إبراهيم: الأسطورة/ ٨٦.
(٢) أرنست كاسيرر: الدولة والأسطورة/ ٢٣، بتصرف.

وبذلك تغدو عملية رصد الدلالات الدينية الأسطورية عملية صعبة، وتتوسع حقولها وتتداخل مع أنواع أخرى من الأساطير نظراً للكم الكبير من الرموز والمعطيات الثقافية التي تختزن في هذا الحقل الأسطوري.

ومن أجل أن تكون عملية تحليل النصوص مبنية على أسس علمية، تقلل إلى حد ما أي تداخل بين حقول الدراسة، نسجل النقاط الآتية بمثابة اضاءات أساسية:

١. تمثل بعض الرموز الأسطورية، ومنها أسماء بعض الأماكن وأسماء عدد من الآلهة حقائق تشير إلى قيم وثوابت إنسانية وطبيعية. وهذه الثوابت تتناغم مع معطيات ودلالات معينة في النص.

٢. تقدم بعض الأساطير الدينية أنماطاً من التماثل والتشابه بين الواقع وتدرجات القيم خلاله، بحيث يتحول هذا التماثل إلى معيار مرجعي يمثل نقطة تقاطع الصورة الأدبية مع الصورة الاسطورية.

٣. تسعى الأسطورة الدينية إلى إبراز توازن بين عنصر معين في النص الأدبي وبين البنية الدلالية في جانب من جوانب لغرض زيادة الرصيد التخييلي في الصور داخل نسيج النص الأدبي.

٤. تقدم الأسطورة الدينية بؤرة متوترة تخلخل الواقع المنطقي داخل النص، وتعيد تشكيله في أطار بنية حرّة تسمح ببناء تداعيات فرعية، فضلاً عن أنها تزيد من عملية التهويم، وتحطم الأبعاد الواقعية لتعيد بنائها في اطار أبعاد الخيال.

لكن الأسطورة ليست اختراعاً فردياً فحسب، بل تتضمن جهداً

جماعياً أحياناً ينتهي إلى صياغة وقائع وشخصيات وأحداث هي الجزء التاريخي من الأسطورة. وهذا الجزء التاريخي يشكل العمود الفقري للقص في الأسطورة. فملحمة كلكامش لا تعتبر ملحمة أسطورية محضة. وأحداث الطوفان على سبيل المثال هي أحداث واقعية، ولكن الأسطورة تستخدمها وتوظفها لأغراض ملحمية أسطورية. وكذلك أساطير الخليقة ونشأة الكون في الأدب الأسطوري السومري والبابلي هي وقائع وتاريخ ولكن تفسيرها ليس بالضرورة مطابقاً لحقيقتها التاريخية وتسلسل حدوثها.

بعد ظهور الإسلام ونزول القرآن اتضح الكثير من الوقائع التاريخية على شكل قصص أوردها القرآن وبعضها جاء من خلال عرض المهمات الرسالية للأنبياء مثل قصة النبي نوح عليه السلام وقصة الطوفان وقصة موسى عليه السلام وفرعون وغيرهما من القصص.

أسطورية الفكرة

من أهم ثوابت العلاقة بين الأسطورة والخيال، هي عملية التكوين المتبادل. بمعنى أن الأسطورة تصنع الخيال فهي تفرض (تأملاً وتفسيراً للتاريخ الفريد دائماً والمثالي، والذي كان قد عرض ثانية أمام القارئ، والمشاهد الذي يمكن أن يكون قد علم مثل الكاتب بوجود تواريخ أخرى معاصرة سابقة أو موازية)[1] لحقيقة جذور الأسطورة التي تصنع تجدداً مستمراً للخيال لدى كل قارئ

(١) دانييل هنري باجو: الأدب العام المقارن/ ١٦٣، ترجمة: د. غسان السيد.

يقوم ببناء مفاهيم جديدة على أساس الثوابت التاريخية التي يعرفها، وبذلك نحصل على براعم جديدة وينابيع لا تنضب من الأخيلة الأسطورية.

وفي اتجاه آخر يقوم الخيال بخلق الأسطورة من خلال عملية إكسائها أبعاداً جديدة ويفرّعها إلى دلالات أخرى قد تكون أعمق، أنها تضفي على الأسطورة البدائية دلالات جديدة، إنه لا وجود للأسطورة الأدبية قط دون تقمص يحييها في عصر تكون قادرة فيه على التعبير الأمثل عن مشاكله الخاصة[١].

ومن أهم مظاهر هذا التقمص أن الأسطورة تتجدد بالخيال وتغدو قابلة للولادة من جديد في مناخات زمنية تختلف عن جذور نشأتها الأولى.

ما هي أسطورية الفكرة؟

يمكننا أن نحدد أسطورية الفكرة على أنها بنية رمزية لها تنظيمها الخاص تستمد خيالها بشكل ميتافيزيقي من الواقع لكنها تحافظ على توازن طرفاه الأصل الأسطوري والمعادل الخيالي الذي يشير إلى جوهر الطرف الأول، وهو جذر الأسطورة أو أهلها العام.

إذن يمكننا عد أسطورية الفكرة كنظام رمزي في رحم الأدب لكنه يحتفظ بروح الأسطورة الأصل، يحث المتلقي ويستثيره وينقله إلى

(١) المصدر المتقدم: ١٤٥.

أجواء الأسطورة الأم بشكل لا يخلو من الإبداع، والأسطورة بذلك (تستطيع أن تُبعث من جديد عندما يعاد تفعيل المرجعية)[١].

ويقدّم الرمز جسراً من الخيال يؤدي إلى عالم الأسطورة ويوصل النص به.

تُقدم اسطورية الفكرة من خلال عملها محاور عدّة أو وسائط تربط الفكرة بالمرجعيات الأسطورية الاصيلة يمكن أن نطلق عليها تجليات الأسطورة التي يمكن أن نثبت بعض أنواعها كالآتي:

١. فكرة الإنتقال بين العوالم.

٢. الأماكن الأسطورية.

٣. العناصر الأسطورية والمبالغات.

٤. السعي إلى الخلود.

إن هذه المحاور التي تؤشر ظلاً للأساطير الكبرى لا تنبثق من الفراغ أو اللاوعي الحضاري بل تنطلق من حقيقة أساسية مفادها: (أن الإنسان المتحضر يحتفظ دون وعي منه بمعارف ما قبل التاريخ أدرجها بصورة غير مباشرة في الأسطورة، فإن صحّ ذلك فإن هذا التخمين يفسر الرغبة الغامضة بعض الشيء في الإستماع إلى القصص الأسطورية على الرغم مما فيها من عناصر خارقة)[٢].

---

(١) المصدر السابق ١٤٩.

(٢) ويلبرس سكوت: خمسة مداخل إلى النقد الأدبي/ ٢٦٦، تحقيق: د. عناد غزوان وجعفر صادق الخليلي.

إن هذه العناصر تلاشت ضمن أطارها العام وتحوّلت عبر الزمن إلى ما يمكن أن نطلق عليه (نوى الأساطير) وتراكمت هذه النوى في الفن والأدب كأفكار يمكن ملاحظة قواها الأسطورية عبر (عملية انتقالها من جيل إلى جيل وباستمرار وتنقيحها وتنقيتها وتكرار الشعور بها والتفكير فيها، نجد موضوعاً يتسم أحياناً بقوة تكاد تكون دائمة الخلود، ومع ذلك ثمة صفة موروثة تظل باقية والأجزاء المميزة تظل تتكرر دون وعي في جيل من الشعراء بعد جيل، بل هنالك ما هو أكثر، فهو يكشف أحياناً عن أن اسطورة بدائية تكمن فيها ثروة من التفاصيل الدرامية[١]).



(١) المصدر المتقدم: ٢٩٩.

البحث السابع
شمولية الأدب الإسلامي

يظن كثير من الباحثين أن إسلامية الأديب تعني انقطاعه عن الحياة العامة، واعتقاله نفسه وفكره وقلمه داخل سجن البيئة الإسلامية بما يفرض على أدبه الخصوصية والمحدودية في الموضوع المتناول، وإن كان الحوار العقلي الجاد والمناقشة التنظيرية المحايدة تبطل هذا الظن وتجعله وهماً لا يمت إلى الحقيقة بأية صلة لأن الإسلام هو دين الإنسانية ـ في شمولها وعمومها ـ الذي يتناول الإنسان ويتعامل معه في كل أبعاده ومستوياته. وأن المقارنة النقدية الواعية لأي نص أدبي تؤكد أن الأديب لم ينشأ عبثاً، وأن له وظيفة صميمية في الحياة التاريخية والإجتماعية، وظيفة الكشف والشهادة على كل القضايا المتفاعلة والمتداخلة في رحم الوجود الحياتي للأمة، وظيفة الإدانة الصريحة والتبشير المتفائل بما هو أفضل وهي وظيفة يشهد له بها النقد الأدبي قديماً وحديثاً رغم سائر الدعاوى الواهية.

والأديب الإسلامي لا يستطيع أن يخاصم العصر أو يهرب منه إلى عصور قديمة. والأدب الإسلامي حينما يتناول موضوعاً تاريخياً

(قديماً) لا يهرب في الواقع من مجابهة المجتمع أو الحياة الحديثة، إنه يتناول التاريخ وعينه على الحاضر، ففي التاريخ كنوز ثمينة من التجارب الإنسانية الشاملة التي لا تموت بمرور السنين، إنها قضايا الماضي والحاضر والمستقبل، فإذا قدّم الأديب المسلم انموذجاً أو مثلاً نابضاً عريقاً يرمز إلى قيمة من قيم الحق أو الخير أو الفضيلة وغيرها، أو صوّر صراعاً بين الخير والشر كان لمثل هذا العمل الأدبي تأثير إيجابي لما يتضمنه من جمال ومتعة وفائدة، والتاريخ واقع الأمس وفيه قضايا متجددة هي قضايا كل عصر، ومن قال أن الحرب والسلام، والخير والشر، والحب والكره قضايا عصر بعينه؟ أو مجتمع بعينه؟ أن المضمون لا يختلف، وإن اختلف أسلوب التناول بل قد يختلف أو يتحور المضمون أيضاً من منظور آني دون إخلال بقواعد التصور والثبات في الإسلام[١].

ولهذا نقرأ أسطورة (أوديب) في أصلها، فنجد أن لها منحى أو مضموناً عاماً، كما نجد فيها تفاوتاً في الهدف والأسلوب عند سارتر أو الحكيم أو باكثير أو غيرهم من كتّاب الشرق والغرب وكل واحد من هؤلاء يوظف الحدث بطريقة خاصة ليعبر عن قيمة من القيم تتفق وفلسفته أو عقيدته[٢].

حتى الإنحراف عند المرأة لم يكن ينظر إليه على أنه لعنة أبدية، ولكن ينظر إليه كمرض أو كلحظة ضعف تحتاج إلى من ينهض بها

---

(١) الدكتور نجيب الكيلاني: مدخل إلى الأدب الإسلامي/ ١٠٠.
(٢) المصدر المتقدم: ١٠٣.

أو يقويها، حتى تبرأ من آثارها ومضاعفاتها، فأية أمور تخص المرأة يمكن الحظر عليها في الأدب الإسلامي؟

إن منطقة الحظر ليست كما يظن بعضهم، فهي محدودة جداً.

فالأدب الإسلامي يستطيع أن يتناول المرأة من شتى جوانب حياتها، بشرط أن لا ينزع بالقارئ أو المتلقي منازع الفتنة والإثارة والإغراء بارتكاب الموبقات، والواقع أن هذا الكلام قد يبدو مقبولاً في إجماله، لكن الصعوبة تأتي عند التطبيق، ومن ثم فهي تتراوح في مدى إمكانية النجاح من كاتب لآخر.

لكنّ الأمر الذي يجب أن لا نغفله هو: إلى أي شيء ترمز شخصية المرأة في أي عمل أدبي؟ قد ترمز هذه المرأة في قصة من القصص مثلاً إلى الطهارة والنقاء، ومن ثم فإن الكاتب يصورها وهي تقاوم الإغراء، وتتجنب السقوط، حتى تظل متمسكة بطهرها ونقائها وتكتمل الصورة كلما حاول الكاتب إلقاء الضوء على شخصيات (الشياطين) الذين يحيطون بهذه المرأة ويزيفون لها الإثم ويفلسفون الرذيلة، وهي تقف بين نداء ضميرها ودينها وبين وسوسة الشهوة والإغراء، لكنها في النهاية يتحقق لها النصر على الضعف والهوى والفساد.

وقد ترمز شخصية المرأة في قصة إلى بيئة منحطة وسلوكيات متهتكة وتسيب أخلاقي لسبب أو لآخر، والكاتب هنا لا يستطيع أن يرسم الصورة المعبّرة بدقة، إلاّ إذا انتخب الأحداث والحوارات المناسبة لهذه الشخصية المبتذلة.

ووظيفة الكاتب المسلم هنا أن يختار ما يثير الرفض والإدانة لهذا المسلك المعيب، لا ما يبرر الإنطلاق في دنيا الحرية الآثمة.

إن وضعية المرأة في المجتمع وما يلابسها من محاذير وحرج وسلبيات لا يمكن تناولها إلاّ بالتواجد المباشر للمرأة.

وإذا كانت الخمرة محرمة وهي أم الخبائث، فهل هذا يمنع من طرح مشكلتها وآثارها النفسية والاجتماعية والأخلاقية من خلال شخصية سكير عربيد، تتجسد فيه مأساة الخمر؟ وإذا كان قطع الطريق وقتل البريء جريمة بشعة ممقوتة، أفلا يجب أن نتناول هؤلاء القتلة والطغاة والمنحرفين من خلال أعمال أدبية تهدي المتلقي إلى المواقف الإنسانية النبيلة، حيث تحترم حرية الإنسان وحقه في الحياة فلا يعتدي عليها معتد؟

وإذا كان الزنا صورة للجنس المنحرف الحرام، أفلا يمكن تناوله بما يستحقه من تقبيح وتنفير وما يصاحبه من مقدمات وإغراءات وسقوط؟

والجنس في الإسلام له أحكامه وآدابه، وقد تناوله الكثير من علماء المسلمين بالدراسات الدقيقة، كذلك وردت بعض الأحاديث عن رسول الله ﷺ مثل الحديث الذي يوصي المسلم بألا يرتمي على زوجته كالبهيمة، ولكن يقبّلها ويداعبها، قال ﷺ: (إن أحدكم ليأتي أهله، فتخرج من تحته فلو أصابت زنجياً لتشبثت به، فإذا أتى أحدكم أهله فلتكن بينهما ملاعبة)[١].

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ الباب (٥٦، ٥٧) من أبواب مقدمات النكاح.

إن تصورنا لموضوع الجنس يجب أن يكون واضحاً دون تعقيد أو غموض، لأن القرآن الكريم كتابنا المقدس عرضها في قصة طويلة، حيث تحتدم الشهوة في جسد امرأة جريئة تتحدى القيم والمواضع الاجتماعية وتلهث وراء نبي الله يوسف عليه السلام، لتطفيء شعلة شهوتها وهياجها وتعلن في تبجح أمام نسوة المدينة إصرارها على الاثم.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ * قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ * فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[1].



(١) سورة يوسف: الآيات ٣٠ ـ ٣٥.

الفصل الثاني

القصة القرآنية

وفيه بحوث:

تمهيد

القصة في مفهومها الحديث ـ كما قلنا ـ عمل فني قائم على بناء فني خاص، يصطنع كاتبها واحداً، أو جملة من الأحداث والمواقف والأبطال والبيئات عبر لغة تعتمد السرد، أو الحوار، أو كليهما معاً لربط الشخصيات مع الحدث وإبراز الأحداث التي تشكل البنية الأساسية للقصة باعتبارها بناءً فنياً يقوم على عكس الحياة الواقعية من خلال الأدب القصصي، وتتضمّن هدفاً فكرياً محدّداً، يخضع الكاتب عناصره إلى ما هو ممكن أو محتمل من السلوك وذلك وفق عملية اصطفاء خاصة للعناصر المذكورة.

وقد لعبت القصة دوراً كبيراً في الحياة الإنسانية منذ فجر التاريخ البشري إلى يومنا الحاضر. ويقدّر الباحثون أن القصة كانت الرفيق الأول الذي صحب الإنسان منذ خطواته الأولى على هذا الكوكب، وكانت القصة هي أقدم ما عرف من تصوّرات عقله، وما تختلج به خواطره، وأحلامه. لذلك لا يمكن أن نتصوّر أن تخلو حياة إنسان من قصة، أو عدة قصص، ذلك أن الأحداث المثيرة، والمواقف الحرجة المتأزمة هي البذور التي تبزغ منها القصص بعد أن تستجن في كيان الإنسان، وتستجيش من مشاعره وتسكن إلى وجدانه.

الأدب القصصي بنحو عام هو: انتقاء أو انتخاب خاص لواحد أو لمجموعة من الشخصيات والأحداث والبيئات والأفكار.

ونعرض في بدء حديثنا عن القصة للعناصر العامة في القصة، وهي نمطان: مادة القصة، ولغتها. وتعتمد مادة القصة على أربعة عناصر، هي:

الشخصية، الحادثة، البيئة، القيم أو الأفكار.

تبرز الشخصية القصصية من خلال النموذج أو البطل الذي يتطلب رسمه قدرة فنية على إبراز معالمه سواء من خلال السرد أو الحوار أو من خلال الحدث القصصي الذي يطور الشخصية وانفعالاتها وتأثيرها وتأثرها. وقد تظهر الشخصية من خلال علاقتها بالشخصيات الأخرى الرئيسية أو الثانوية التي تكمل عالم القصة وتظهره من خلال أقونات القصة مجتمعة كعناصر السرد والوصف والحوار والحدث. (ويمكن رسم الشخصيات وفق الأشكال الآتية، مع ملاحظة أن غالبيتها تجسد نمطاً قد تجاوزته الآداب المعاصرة إلاّ أنها ضرورية)[١]:

الشخصية الرئيسية والثانوية: والذي نقصده بالشخصية الرئيسية الشخصية التي تتحرك في جميع الأدوار مثل شخصية يوسف عليه السلام حيث بدأت تفرض وجودها منذ بداية القصة فوسطها ونهايتها، بدءاً

---

(١) د. محمود البستاني: القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي/ ٢٩٧، ط ١، مؤسسة الطبع والنشر في الاستانة الرضوية المقدسة، ١٤١٤هـ.

من الحلم ـ أحدَ عشرَ كوكباً ـ مروراً بمشاعر وبمؤامرة إخوته، فإلقائه في البئر فالتقاطه، فحادثته مع امرأة العزيز، فسجنه، فخلاصه، فنصبه وزيراً للمالية، فقضيته مع إخوته عن الصاع، فعودته إلى أسرته.

وأما الشخصية الثانوية: فالمقصود بها أن تكون ممثلةً لدور خاص ثم تختفي بعد ذلك، مثل أخوة يوسف، يعقوب ﷺ، امرأة العزيز، نسوة المدينة، صاحبي السجن، الملك. وقد تخدم الأحداث المختلفة إبراز عناصر الشخصية البطلة كما في قصة يوسف ﷺ حيث تتوظف كافة الأحداث والحوارات والتطورات لتخدم الهدف الأساس للقصة وهو تسليط الضوء على مقومات الشخصية أو البطل باعتباره نموذجاً، فتكون الشخصيات الثانوية مثل أعضاء السيارة والمرأة والسجينين في خدمة البطل الرئيس وفي خدمة الهدف الأساسي للقصة.

ووظيفة الشخصية الثانوية هي القاء الإنارة على الشخصية الرئيسية، أو توظيفها لفكرة خاصة، مثل امرأة العزيز التي ألقت إنارتها على شخصية يوسف ﷺ حيث اثبتت نظافة يوسف ﷺ، ومثل شخصية الأخوة التي وُظفت لإبراز فكرة خاصة هي (الحسد).

أما الشخصية النامية فيقصد بها الشخصية التي تتغير من حالة إلى أخرى في القصة، مثل شخصية السحرة الذين بدأوا في القصص القرآني ضالّين وانتهوا أخيراً إلى شخصيات مهتدية.

والشخصية المنبسطة هي الشخصية التي يتسم سلوكها بالثبات

بحيث لا تتغير من بداية القصة إلى نهايتها مثل شخصية فرعون الذي بقي في ضلاله إلى النهاية.

والمسوّغ الفني لهذا النمط من الشخصيات، هو أن الإنسان بطبيعته يتسم بهذين الموقفين فهو أن يهتدي ويحتفظ بهدايته، وإما أن يضل ويستمر في ضلاله، وإما أن يتحول من الضلال إلى الإيمان، أو من الإيمان إلى الضلال.

وهناك شخصية فردية ويُقصد بها أن يكون الرسم القصصي متناولاً لشخص واحد، مثل قصص الأنبياء، وأما الجماعية فالمقصود بها الجماعات أو الأمم مثل المجتمعات التي واجهت الأنبياء، وهي إما محدودة مثل أصحاب الكهف أو كبيرة مثل مجتمعات عاد وثمود.



المبحث الأول
القصة القرآنية

إن القصة ـ بمفهومها الفني الحديث ـ تخضع لعناصر مختلفة يكون للمؤلف دوراً في صياغتها وبلورتها على أساس العناصر العامة للفن القصصي، فتشكل حبكة القصة التي تحوم الوقائع عليها، أو تشكل بعض المواقف والأحداث أو الأبطال والبيئات. وهذا المفهوم هو على الضدّ تماماً من القصة القرآنية الكريمة التي يصح أن نطلق عليها مصطلح (القصة العملية) فيما تُعنى بنقل الأحداث الحقيقية وفق اصطفاء هادف للعناصر التي تضيء الأفكار المستهدفة من النص القرآني الكريم. ومن هنا يخلص بعض الباحثين إلى أن أهمية القصة القرآنية تكمن في أنها تتعامل مع (الواقع) لا مع (المحتمل) محققة بذلك عنصر الاقناع عملياً، لا فنياً. لذا كانت من أهم ميزات القصص القرآني هي الواقعية بمعنى ذكر الأحداث، والقضايا والصور التي لها علاقة بواقع الحياة الإنسانية ومتطلباتها المعاشة في مسيرة التاريخ الإنساني. والواقعية هنا تأتي من التاريخ باعتباره وعاء لواقع مضى يشكل للقصة وصفين هما: القصة التاريخية والقصة الواقعية. فأبطال القص هم أبطال من التاريخ ولذا

فان الواقعية هي جزء من هذا التاريخ بعيد عن الخيال والإفتراض الفني.

ومن ثم نفهم أن القصص القرآني في موضوعه نسيج من الصدق الخالص وعصارة من الحقيقة المصفّاة، لا تشوبه شائبة وهم، أو خيال، لأنه يتشكّل ويرتفع بنيانه الشامخ من لبنات الواقع النابض، هذه الواقعية التي نراها تتجلّى في واقعية الأشخاص، وواقعية الحوار، وواقعية الأسلوب.

والقصة القرآنية باعتبارها أداة ناجعة لتربية النفس، وتقويم السلوك، وتصحيح الاعتقاد، وغرس الشعور المتوفّر بالإيمان بالله، نراها قد جاءت بياناً صادقاً أميناً لواقع تاريخي هزّ أركان أمم طغت، وبغت، فكانت هزّة صادعة لجميع الشعوب، والأمم والأفراد، وبذلك فهي (أحسن القصص) و (أحسن الحديث) فما أشدّنا اليوم حاجة إلى قصص الله، وحديثه الكريم. إننا أحوج ما نكون إلى تلك القصص الحق التي تمثّل حلقات متواصلة من فصول الواقع الإنساني الذي صنع صرح التاريخ البشري.

وأخيراً: إننا بحاجة إلى أبطال حقيقيين كان ميدانهم الأول أنفسهم، فهزموها، وجعلوها ساحة لتجلّيات الحق (عزّ وجل).

وفي ضوء معنى القص المتقدم، تعرّض القرآن الكريم لسرد طائفة ليست بالقليلة من قصص الأنبياء، والمرسلين كقصة آدم ونوح وإبراهيم وموسى، وهارون ويحيى وعيسى وداود وسليمان ويونس ولوط، وإدريس وشعيب عليهم السلام والنبي الخاتم محمد ﷺ ولم يقتصر

القصّ القرآني على ذكر أحوال الأنبياء والمرسلين. بل تعدّاهم إلى قصص الأولياء والصالحين، وعباد الله المخلصين كقصة العبد الصالح الذي التقاه موسى عليه السلام على ما تحدّثُنا به سورة الكهف. كذلك لا ينبغي أن نغفل عن القصة التي قصّها علينا القرآن حول مريم عليها السلام وكيف أصبحت أماً لنبيٍّ من أنبياء أولي العزم وأن الله اصطفاها على نساء العالمين، وذلك من خلال سورة قرآنية كاملة سمّيت باسمها وهي سورة مريم.

وتكشف هذه القصص أيضا طبيعة المجتمعات التي عاش فيها الأنبياء والعبادات التي كانت سائدة في تلك المجتمعات ونمط عيشهم وتفكيرهم وعاداتهم، وحتى طبيعة الأرض ومواردها حيث تقوم بعض القصص القرآنية على قاعدة اجتماعية عريضة تتطرق حتى إلى وسائل وأنماط العيش من زراعة وتجارة وأكل وملبس ونظام سياسي.



البحث الثاني
أهدف القصة القرآنية

واستناداً إلى حقيقة الكم الهائل من القصص القرآني ينبثق السؤال التالي: ما هو الهدف من وراء سرد هذه القصص من تاريخ الأمم والأشخاص في القرآن الكريم؟ وهل تتوظف هذه القصص لإثبات قيم موحدة هي القيم الخاصة بالأديان السماوية؟ وهل التوظيف الفني توظيف ديني بحت وأن الفن القصصي إنما هو جزء من الإعجاز الفني للقرآن؟

بالتأكيد ليس الهدف من ذلك هو البعد التاريخي الموجود في هذه الحكايات والأخبار، فليس القرآن كتاباً تاريخياً بالمعنى الإصطلاحي للتاريخ. ومن خلال التأمل بآيات القرآن الكريم وسوره نستنتج الأهداف الكامنة من وراء القصص القرآني:

وأولها: تثبيت فؤاد النبي الأكرم ﷺ قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[1]. ومن هنا يظهر الدور الكبير الذي تضطلع به قصص الأنبياء والمرسلين في القرآن، وأنها

(١) سورة هود: الآية ١٢٠.

على درجة من العظمة تصل حدّ التأثير الايجابي في فؤاد كفؤاد النبي ﷺ.

وثانيها: أنها عبرة لأولي الألباب وأصحاب العقول قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١).

وثالثها: أن يكون القصص مدعاة للتفكّر، ومعرفة طريق الحق وتمييزه عن مزلّة الباطل قال تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

ورابعها: التنبيه على سنن الله ـ تعالى ـ في المجتمع البشري، ومدى تأثير أعمال الخير والشر في الحياة الإنسانية قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾(٣)، قال تعالى: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾(٤). وقد ذكر المفسرون جملة من الفوائد المترتبة على القصص القرآني منها:

١. إن قصارى علم أهل الكتاب في ذلك العصر، كان معرفة أخبار الأنبياء، وأيامهم، وأخبار من جاورهم من الأمم، فكان اشتمال القرآن على تلك القصص التي لا يعلمها إلاّ الراسخون في العلم من أهل الكتاب تحدّياً عظيماً لأهل الكتاب، وتعجيزاً لهم بقطع حجّتهم على المسلمين.

---

(١) سورة يوسف: الآية ١١١.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧٦.
(٣) سورة الحجر: الآية ١٣.
(٤) سورة غافر: الآية ٨٥.

٢. إنّ من أدب الشريعة معرفة تاريخ سلفها في التشريع من الأنبياء بشرائعهم، فكان اشتمال القرآن على قصص الأنبياء، وأقوامهم تكليلاً لأهمية التشريع الإسلامي بذكر تاريخ المشرّعين.

٣. ما فيها من فائدة التاريخ من معرفة ترتّب المسبّبات على أسبابها في الخير والشر، والتعمير والتخريب لتقتدي الأمة وتحذر، مضافاً إلى معرفة أن قوة الله (تعالى) فوق كل قوة، وأن الله ينصر من نصره، ولحصول اليقين القاطع بأن الحق (عزّ وجل) غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

لقد وصف الحق (سبحانه) القصص القرآني بأنه ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ ونسب القصّ إلى ذاته المقدّسة قال تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾[١].

إلاّ أن السؤال المهم في هذا المجال، هو عن السامع الذي يتلقّى هذا القصص الحق، أهو من الذين يستمعون القول، فيتّبعون أحسنه؟ أم من الذين لا يتدبّرون القرآن وعلى قلوبهم أقفالها؟

ينبغي أن نسأل أنفسنا أولاً: لماذا كانت هذه القصص أحسن القصص؟ ولماذا أحسنُ الحديث؟

إن قصص الأنبياء والمرسلين ليست هي إلاّ دورات متكاملة في العبودية التي يسير بها الإنسان من موطن نفسه إلى قرب ربّه، ويطوي المسافات المترامية من أرض البعد إلى حظيرة القرب،

---

(١) سورة يوسف: الآية ٣.

وذلك من خلال الإعراض عن زخارف هذه الدنيا وأمانيها، والإنقلاع والتخلص إلى الأبد من وساوس الشياطين، والإقبال والتوجّه إلى مقام الرب ودار الكبرياء. فإذا رجعنا ـ مثلاً ـ إلى قصة إبراهيم عليه السلام وسيره بولده، وزوجته إلى أرض مكة، وإسكانهما هناك وما حدى عليهما من الأمر حتى آل الأمر إلى محاولة ذبح إسماعيل عليه السلام وفدائه من جانب الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وبنائهما البيت، وجدنا القصة دورة كاملة من السير العبودي الذي يسير به العبد من موطن نفسه إلى قرب ربّه فها هي وقائع متفرقة مترتبة تسلسلت وتألفت قصة تاريخية تحكي عن سير عبودي من العبد إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتشمل من أدب السير، والطلب والحضور وسلام الحبّ والوَله والإخلاص على ما كلما زدت في تدبّرها إمعاناً زادك استنارة ولمعاناً.

ومن هنا نعرف أن القصة القرآنية تتفق مع أهداف القرآن التربوية الكبرى، الذي جاء هداية للناس، وبياناً وتفصيلاً لكل شيء، وتنبيهاً للإنسان من الغفلة والوقود، والتحذير من أخطار الحياة وتصويب مناهج الآداب والسلوك.. فتكون القصة القرآنية أداةً عملية ناجعة لتربية النفس، وتقويم السلوك، وتصحيح الاعتقاد. وليست القصة القرآنية مجرّد حكاية للتسلية وإمداد الخيال برؤى بعيدة التصور، وإنما هي بيان صادق أمين لواقع تاريخي هزّ أركان أقوام طغوا، وبغوا، فكانت هذه صادعة لجميع الأقوام والأمم والأفراد. والقصة في القرآن الكريم تذكير دائم بأحداث الأمم الغابرة، والأقوام البائدة

الذين تنكّبوا صراط الهداية الربّانية، وتنكّروا لرسالات الأنبياء، وهدي القادة المصلحين.

والقصص القرآني متناسق في منهجه التربوي مع منهج القرآن لهذا نراه يمثّل تطبيق المثال الحيّ لهذا المنهج المتكامل ففي قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1]، إشارة واضحة إلى أحد المذاهب الجليلة في علم الأخلاق ونقصد به مذهب القدوة والمثل. ففي قصص القرآن ـ إذن ـ تربية دينية لها أثر عميق في النفوس مصدرها عقيدة تضم الخالق والإنسان والكون، وتقوم على أساس أن كل خلق كريم هو في ذلك الشعور الباطني، وهو الإيمان بالله تعالى الذي جعل الكون معرضاً رائعاً تتجلّى فيه حقيقة الألوهية بآثارها وتملأ جوانب الإنسانية بآياتها، واستناداً إلى هذه الحقيقة، فإن ثمة ناحيتين لابد من ملاحظتهما في القصص القرآني:

الناحية الأولى: يصور القصص القرآني ما أكرم الله به رسله من عناية وما أحاطهم به من رعاية لتوجيههم وتربيتهم تربية تعدّهم للنهوض بتبليغ الرسالات السماوية ومجابهة قوى الشر والطغيان في الأرض، فكان من أثر هذه التربية الروحية في نفوسهم أنهم صاروا عنوان الأمانة والصدق والنزاهة، ومثال الإخلاص لله، والعمل في سبيله دون أدنى طمع أو منفعة شخصية في الدنيا.

الناحية الثانية: تربية الأنبياء لأقوامهم بتوجيهاتهم وسيرتهم حتى

---

(١) سورة الاحزاب: الآية ٢١.

يكونوا للمؤمنين بهديهم والعاملين بإرشادهم المثل الأعلى الصادق. فإن النبي يرى مثله الأعلى في (الله) وأتباعه يرونه في نبيّهم، لأن مهمة الرسل لم تكن مقصورة على تبليغ شرائع الله، بل أن يكونوا قدوة للناس في إقامة العدل، والحق، وتسخير القوى والمواهب لاسعاد الخلق.

لم تكن القصة في القرآن فناً خالصاً لذاته وإنما فن لخدمة أهداف أخرى، دينية وأخلاقية، مستخدمة التاريخ والواقع المعاش والمروي مادة للقصة. ولذلك فإن القصة في القرآن تتميز بشكل عام بالتركيز والتكثيف فتأتي وكأن السرد فيها لغة شعرية أكثر من كونها لغة نثرية للسرد، ويتضح هذا في المقدمات الموجزة كما في قصة مريم عليها السلام وفي قصة أهل الكهف.



البحث الثالث
أغراض القصة القرآنية

إن القصة القرآنية تكاد تستوعب في مضمونها وهدفها جميع الأغراض الرئيسة التي جاء من أجلها القرآن الكريم، ويمكن أن تصنّف هذه الأغراض إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الأغراض الرسالية، ومنها:

أ. اثبات الوحي والرسالة، وأن ما جاء به القرآن الكريم، لم يكن من عند محمد ﷺ وإنما هو وحي أوحاه الله تعالى إليه، وأنزله هداية للبشرية.

ب. وحدة الدين والعقيدة لجميع الأنبياء، وأن الدين كله من الله سبحانه، وأن أساس الدين الذي جاء به الأنبياء المتعددون هو أساس واحد لا يختلف بين نبيّ وآخر. فالدين واحد، ومصدر الدين واحد أيضاً. وجميع الأنبياء أمةً واحدة تعبد هذا الإله الواحد، وتدعو إليه.

وهذا الغرض يهدف، فيما يهدف إليه، إبراز الصلة الوثيقة بين الإسلام الحنيف وسائر الأديان الإلهية الأخرى التي دعا إليها الرسل

والأنبياء الآخرون، وأن الإسلام يمثّل امتداداً لها، ولكنه يحتلّ منها مركز الخاتمة التي يجب على الإنسانية أن تنتهي إليها. مضافاً إلى ذلك أن تظهر الدعوة على أنها ليست بدعاً في تاريخ الرسالات، وإنما هي وطيدة الصلة بها في أهدافها وأفكارها ومفاهيمها، بل أنها تمثّل امتداداً لهذه الرسالات الإلهية، وتلك الرسالات تمثّل الجذر التاريخي للرسالة الإسلامية. وعلى هذا الأساس.. تكرّر ورود عدد من قصص الأنبياء في سورة واحدة، ومعروضة بطريق خاصة، لتؤكد هذا الارتباط الوثيق بينهم في الوحي والدعوة التي تأتي عن طريق هذا الوحي.

جـ. بيان أن وسائل الأنبياء وأساليبهم في الدعوة واحدة، وطريقة مجابهة قومهم لهم، واستقبالهم متشابهة، وأن العوامل والأسباب والظواهر التي تواجهها الدعوة واحدة. والسبب وراء تأكيد القرآن لهذه الحقيقة هو: بيان صحة هذه المواقف الرسالية وأساليبها من ناحية، ونتائجها وآثارها من ناحية أخرى، والتثبيت عليها من ناحية أخرى.

د. تصديق التبشير والتحذير: فقد بشّر الله سبحانه عباده بالرحمة والمغفرة لمن أطاعه منهم، وحذّرهم من العذاب الأليم من عصاه منهم، ومن أجل إبراز هذه البشارة والتحذير بصورة حقيقة متمثلة في الخارج، عرض القرآن الكريم بعض الوقائع الخارجية التي تتمثّل فيها البشارة والتحذير.

هـ. بيان نعمة الله على أنبيائه، ورحمته بهم، وتفضّله عليهم،

وذلك توكيداً لارتباطهم، وصلتهم به. وقد جاءت بعض قصص الأنبياء لتأكيد هذا المفهوم كبعض قصص سليمان، وداود، وإبراهيم، ومريم، عيسى، وزكريا، ويونس، وموسى (عليهم وعلى نبينا آلاف التحية والثناء).

و. بيان غواية الشيطان للإنسان، وعداوته الأبدية له، وتربصه به الدوائر والفرص، وتنبيه بني آدم لهذا الموقف المعيّن منه، ولا شكّ أن إبراز هذه المعاني والعلاقات بواسطة القصة يكون أوضح وأدعى للحذر والالتفات.

ز. بيان الغايات والأهداف من إرسال الرسل والأنبياء وأن ذلك إنما هو من أجل إبلاغ رسالات الله، وهداية الناس، وإرشادهم وتزكيتهم، وحل الاختلافات، والحكم بالعدل بينهم، ومحاربة الفساد في الأرض، وفوق ذلك كله هو إقامة الحجة على الناس. ولذا جاء استعراض قصص الأنبياء بشكل واسع لبيان هذه الحقائق.

الثاني: الأغراض التربوية:

فقد استهدف القرآن بشكل رئيس:

أ. تربية الإنسان على الإيمان بالغيب.

ب. تربية الإنسان على الإيمان بالقدرة الإلهية المطلقة كالقصص التي تذكر الخوارق مثل: قصة آدم عليه السلام، ومولد عيسى عليه السلام، وقصة البقرة، وقصة إبراهيم عليه السلام مع الطير الذي آب إليه بعد أن جعل على كل جبل جزءاً منه.

جـ. تربية الإنسان على الأخلاق الفاضلة، وفعل الخير،

والأعمال الصالحة، وتجنبه الشر والفساد، وذلك ببيان العواقب المترتبة على هذه الأعمال.

د. التربية على الاستسلام للمشيئة الإلهية، والخضوع للحكمة التي أرادها الله سبحانه من وراء العلاقات الكونية والإجتماعية في الحياة الدنيا، والحكمة الإنسانية القريبة العاجلة.

الثالث: الأغراض الإجتماعية والتاريخية، أي: بيان السنن التاريخية في حركة الإنسان والمجتمع الإنساني، ومن هذه السنن:

أ. سنة ارتباط تغيير الأوضاع الإجتماعية والحياتية للناس بتغيير المحتوى النفسي والروحي لهم.

ب. سنة انتصار الحق على الباطل.

ج. سنة الابتلاء وعموم الامتحان.

د. سنة أن النصر الإلهي لا يتحقق إلاّ بعد التعرض للبأساء والضراء والصبر على الابتلاء.

وهذه الاغراض أو الوظائف استخدمت مختلف الوسائل الفنية والبلاغية لتحقيق الفائدة منها ولذلك جاء الاعجاز القرآني بما لم تجئ به الكتب السماوية الأخرى مثل التوراة والإنجيل. حيث كان القرآن نفسه هو المعجزة.

❁ ❁ ❁

البحث الرابع
الخصائص الأساسية للقصة القرآنية

تميّزت القصة القرآنية عن غيرها من القصص بجملة من الخصائص: أهمها:

١. الواقعية: بمعنى ذكر الأحداث والقضايا والصور في القصص القرآني التي لها علاقة بواقع الحياة الإنسانية، ومتطلباتها المعاشة في مسيرة التاريخ الإنساني مقابل أن تكون القصة إثارة وتعبيراً عن الصور، أو الخيالات أو الأماني، ذلك لأن القرآن الكريم يريد من ذكر القصة، وأحداثها إعادة قراءة التاريخ الإنساني والقضايا الواقعية السالفة، الذي عاشته الأمم والرسالات الإلهية السابقة، ومتابعة هذه القراءة في الحاضر المعاش من قبل الإنسان للاستفادة منها، والاعتبار بها في حياته، وحركته، ومواقفه، وتطلعاته نحو المستقبل والكمالات الإلهية. أي أن القص القرآني يلعب دوراً في نقل التجارب من جيل إلى جيل ومن أمة إلى أخرى ليوحد العناصر المشتركة لهذا القص في أطار إنساني.

٢. الصدق في ذكر الأحداث والوقائع التاريخية التي تعرّض لها الأنبياء، وأقوامهم في حياتهم، وذلك في مقابل (الأكاذيب) الباطلة

و (الانحرافات) في التهم والسلوك، أو (الخرافات) التي اقترنت بقصص الأنبياء في كتب العهدين المعروفين بسبب ما تعرّضا له من ضياع وتحريف للحقائق عن قصد أو بدون قصد، أو أشتباه، أو جهل.

٣. التربية على الأخلاق الإنسانية العالية في مقابل التركيز على الأحاسيس، والانفعالات في شخصية الإنسان، والتربية على الاهتمام بالغرائز، وإنما اتّصفت القصة بالقرآن بالأخلاقية، لأن المسيرة، والحركة التكاملية للإنسان ـ سواء على مستوى الفرد أو الجماعة ـ إنما تقوم على أساس الأخلاق بعد العقيدة بالله ـ تعالى ـ والرسالات واليوم الآخر، بل أن الاتصاف بالأخلاق العالية هو الذي يمثّل عنصر التكامل الحقيقي في حركة الإنسان الفردية والجماعية.

٤. الحكمة، وكشف الحقائق الكونية، والسنن التاريخية، والقوانين والأسباب التي تتحكم، أو تؤثّر في مسيرة الإنسان، وعلاقاته الاجتماعية، والحياة الكونية المحيطة به، لأن هذه الحقائق الكونية لها علاقة بمسيرة الإنسان التكاملية ما دام الله تعالى أراد لهذا الإنسان أن يكون مختاراً في حياته، ومستخدماً للعلم والحكمة في مسيرته.

❁ ❁ ❁

البحث الخامس
ظواهر عامة في القصة القرآنية

برزت في عرض القصة القرآنية ظواهر أساسية أهمها:

١ ـ تكرار القصة في القرآن الكريم

من ظواهر القصة في القرآن الكريم تكرار الحديث عن القصة الواحدة في مواضع مختلفة. ويمكن أن نذكر بعض الوجوه التي تفسّر هذه الظاهرة منها:

الأول: أن التكرار إنما يكون بسبب تعدّد الغرض الديني الذي يترتّب على القصة الواحدة، فقد تأتي القصة في موضع لأداء غرض معيّن، وتأتي في موضع آخر لأداء غرض آخر. وفي بعض المواضع يأتي التكرار كظاهرة فنية اشتهرت بها النصوص الكبرى لتأكيد الإيقاع أو ترسيخ الفكرة من خلال أزمة تتكرر أو من خلال ربط المواضيع في مواقع مختلفة.

الثاني: أن القرآن الكريم اتخذ من القصة أسلوباً لتأكيد بعض المفاهيم الإسلامية لدى الأمة المسلمة وذلك عن طريق ملاحظة الوقائع الخارجية التي كانت تعيشها الأمة، وربطها بواقع القصة من

حيث وحدة الهدف والمضمون مما يزيل أي التباس قد يؤدي إلى فهم خاطئ في انحصاره في نطاق الواقعة المحدّدة، فتأتي القصة الواحدة في القرآن الكريم مكررة من أجل تفادي هذا الحصر والتضييق في المفهوم، ليتخذ صفة القانون الأخلاقي أو التاريخي الذي ينطبق على كل الوقائع.

الثالث: أن التكرار يكون سبباً في فاعلية القصة كمنبّه للأمة على علاقة القضية الخارجية التي تواجهها ـ في عصر النزول أو بعده ـ بالمفهوم الإسلامي.

الرابع: أن الدعوة الإسلامية مرّت بمراحل متعددة في سيرها، وقد كان القرآن الكريم يواكب هذه المراحل. وهذا كان يفرض أن تُعرض القصة الواحدة بأساليب متفاوتة في الطول والقصر نظراً لطبيعة الدعوة.

الخامس: أن تكرار القصة لم يأتِ في القرآن الكريم بشكل يتطابق فيه نصّ القصة مع نصّ آخر لها، بل كان فيها شيء من الزيادة والنقيصة، وإنما تختلف الموارد في بعض التفاصيل، وطريقة العرض، لأن طريقة عرض القصة القرآنية قد تستبطن مفهوماً دينياً يختلف عن المفهوم الديني الآخر الذي تستبطنه طريقة عرض قصة أخرى، وهو ما يسمّى بالسياق القرآني.

٢ ـ اختصاص القصة بأنبياء الشرق الأوسط

ذلك أن القرآن الكريم تحدث عن مجموعة من الأنبياء كانوا يعيشون جميعاً فيما يسمّى اليوم بمنطقة الشرق الأوسط. أي:

المنطقة التي كان يتفاعل معها العرب الذي نزل القرآن في محيطهم ومجتمعهم. وحينئذٍ يصبح تفسير هذه الظاهرة واضحاً وهو: أن الواقع التاريخي للحياة الإنسانية فرض هذه الظاهرة.

٣ ـ تأكيد قصة إبراهيم وموسى عليهما السلام

من الملاحظ أن القرآن الكريم ذكر في قصص بعض الأنبياء، وذكر تفاصيل حياتهم، وظروفهم أكثر من بعضهم الآخر. ونجد ذلك في خصوص النبيين إبراهيم وموسى عليهما السلام فهل هذا التأكيد يعني أهمية هذا النبي وفضله بالمقارنة مع بقية الأنبياء فقط؟ أو يمكن أن يكون وراء ذلك ـ مضافاً إلى هذه الأهمية ـ مقاصد وأهداف أخرى اقتضت هذا اللون من التأكيد؟

والجواب عن ذلك: أن بعض هؤلاء الأنبياء قد يكون أفضل من بعض كما يظهر ذلك في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[1]، فضلاً عن أن لهؤلاء الأنبياء اتباعاً يرتبطون بهم روحياً وعقائدياً. مما كان يفرض ـ من أجل إيجاد القاعدة الرسالية ـ أن يتحدث عنهم القرآن بإسهاب.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٢.

البحث السادس
أسلوب القصة القرآنية

لا شك أن أسلوب القصة في القرآن الكريم جاء متميزاً عن الأسلوب المعروف للقصة في التراث الأدبي والإنساني، إذ يكتفي القرآن الكريم بذكر الأحداث بشكل إجمالي أحياناً وبدون ترتيبها الزماني أحياناً أخرى، أو الانتقال فيها من حدث إلى آخر باقتطاع جانب من الأحداث ثالثة، مضافاً إلى الاستطراد في التعرّف إلى المفاهيم والحقائق والموضوعات العقائدية أو الأخلاقية أو الكونية أو الشرعية، وغير ذلك من الامتيازات والخصوصيات التي قد تثير ملاحظة كبيرة حول أسلوب القصة القرآنية، تخرج القصة فيه عن كونها عملاً فنياً مستقلاً له أهدافه الخاصة، وتفقد القصة بذلك هويّتها الخاصة. والحديث حول هذا الموضوع له جانبان:

الأول: تفسير وجود هذا الخلاف وهذه الظاهرة في أسلوب القصة في القرآن الكريم.

والثاني: الجانب الفني لأسلوب القصة القرآنية، نستبين من خلاله جميع العناصر الأساسية في هذا العمل الأدبي الفني.

إن الملاحظة الأساسية ـ عند الحديث على الجانب الأول ـ هي

أن أسلوب القصة في القرآن الكريم جاء منسجماً مع الأسلوب العام للقرآن الكريم، ويأتي في مقدمّة ميزان هذا الأسلوب العام وخصائصه:

١: إن أسلوب الموضوعات والمفاهيم المتعددة بعضها ببعضها في مقطع واحد، وذلك من أجل الخروج بصورة متكاملة لهذه المضامين مرة واحدة، بما أن القرآن الكريم كتاب تغيير وهداية ورحمة، فهو يمزج الحقائق الكونية بالمعارف العقائدية، وبالأحكام الشرعية السلوكية وبالموعظة والارشاد والتبشير والتحذير والعواطف والمشاعر، والأحاسيس بالعقل والإدراك من أجل أن يزكّي ويعلّم ليعمل الإنسان ويلتزم طريق الحق.

٢: تكرار الموضوعات والمفاهيم بصيغ متعددة وفي سياقات مختلفة لتأكيدها، أو لتحقيق مزيد من الأغراض، والأهداف المتعددة.

٣: اختلاف أسلوب القرآن في عرض الموضوعات بحسب الإيجاز والقصر والإطناب والتفصيل، وكذلك بحسب الإيقاع الصوتي والتركيب اللفظي للآيات الكريمة في محاولة للتأثير النفسي والروحي في المخاطبين.

٤: إن أسلوب القرآن الكريم تأثر بالهدف العام لنزول القرآن الكريم.فإن هذا الهدف،كما كان له تأثير على المضمون القرآني، كان له تأثير على أسلوب القرآن الكريم أيضاً.

٥: نلاحظ أن ذكر القصة القرآنية يأتي مرتبطاً بسياقها. وهذا

يعني أن القصة ترتبط بشكل مباشر وتفصيلي بالقرآن الكريم أسلوباً ومضموناً، وتتفاعل مع الهدف بكل تفصيلاته.

أما الحديث عن الجانب الثاني ـ الأسلوب الأدبي الفني ـ فإن صياغة القصة تختلف عن سواها بكونها تحفل بأدوات فنّية متنوعة، تجعل قراءتها مشفوعة بما هو مثير، وملفت للنظر بحيث يتشوّق المتلقّي، ويتلهف، ويحرص على متابعة القصة إلى نهايتها.

إن القصة القرآنية تظل ظاهرة إعجازية، إذ أن صياغتها من الزاوية الفنية تعتبر تجاوزاً لزمن صدور القرآن الكريم، وهو أمر نجده من خلال ملاحظتنا بأن عناصر القصة جمالياً متوفّرة بنحو ملحوظ في القصص القرآني الكريم.

إن دراسة أحد عناصر، أو مواد القصة ـ مثلاً ـ وهي الشخصية، يمكننا أن نتوفر عليها من خلال التعريف بالشخصية وتقسيمها إلى رئيسية وثانوينة ونامية، ومنبسطة، وفردية، وجماعية ومحددة ومبهمة... والتماس النصوص التطبيقية لها من النص القرآني الكريم... وهكذا بالنسبة إلى الموارد الأخرى كالحوار وأنماطه: الخارجي، والداخلي، والمنقول.. أو: كأشكال النص من حكاية، أو أقصوصة، أو رواية.. أو: أشكال العرض من حيث تنوّع ضمائره... أو: أشكال البناء القصصي، أو: مستويات التعامل مع الزمن القصصي.

أولئك جميعاً نجده متوفّراً في صياغة القصة القرآنية، مع ملاحظة جانب مهم من ذلك هو: أن القصة القرآنية بما أنها ظاهرة اعجازية،

لها استقلالها، كذلك فإن عناصر الصياغة القصصية تحتفظ بالطابع نفسه. ولذلك نلاحظ: أن بعضاً مما هو مألوف في القصة البشرية، لا تعنى به القصة القرآنية نظراً لاستقلاليتها في صياغة العناصر الجمالية بنحو ينسّق مع الهدف الفكري للقصة.

وينبغي لفت النظر ـ أيضاً ـ إلى أن القصة القرآنية تختلف عن القصة البشرية بكونها قصة واقعية وليست مصطنعة... فالقصة القرآنية واقعية بما تنتقي من الحوادث أو الأبطال أو المواقف أو البيئات ما هو مثير وطريف بحيث يتناسب مع طبيعة قوانين الاستجابة البشرية للشيء.. فإن المتلقي ينفعل بالقصة الواقعية أكثر من انفعاله بالقصة المصطنعة، إذ أن انفعاله بالقصة المصطنعة يكون فنياً، بينما هو في القصة الواقعية انفعال وجداني، وذلك لسبب جلي هو: أنه يعرف ـ سلفاً ـ في القصة المصطنعة أنه أمام ظواهر مصطنعة، لا واقعية لها بينما يجد نفسه أمام القصة الواقعية حيال ظواهر واقعية.



البحث السابع
فلسفة القصة القرآنية

من المعلوم والثابت أن القرآن الكريم كتاب تشريع، أُنزل لتنظيم الحياة البشرية، وليؤسّس لعلاقات اجتماعية، واقتصادية، وليرسي دعائم متينة بين الخالق والمخلوق، يقوم عليها بناء متكامل لنظام حياتي كريم، لهذا نرى الأحكام الشرعية الفقهية منبثّة فيه، وهي تشغل حيزاً من صفحاته.

وقد جاءت كثيراً من الأحكام مقررة من خلال أوامر ونواهٍ ووصايا في السور القرآنية. ولكن قصص القرآن احتوت هي الأخرى على كثير من القيم والمبادئ التي تحتوي على أوامر ونواهٍ بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر، وكانت قصص القرآن الكريم كثيرة بحيث أنها تغطي مساحة واسعة منه وتشكل عدداً كبيراً من سوره.

فكيف نجد للقصة وجوداً في القرآن الكريم هو أضعاف الآيات المتعلقة بالأحكام؟ وكيف يمكن تفسير وجودها فيه بهذا الامتداد؟

للجواب عن هذا السؤال نقول:

إن القرآن الكريم كتاب تبليغ وهداية، اتخذ كل الوسائل

والأساليب للوصول إلى مبتغاه، والقصة من أهم الوسائل التشويقية التي تتضمن دروساً وعبراً ـ وحتى أحكاماً تشريعية ـ لتحقيق أهدافه في بناء مجتمع إنساني متكامل، خاصة وأنها جزء من تاريخ الرسالات السماوية من خلال الأنبياء الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى إلى المجتمعات. وهذا التاريخ جاء على شكل قصص لأسباب كثيرة منها أن الوقائع تقص من خلال روايتها وأنها تحتوي على مراحل تاريخية مختلفة وأماكن جغرافية متعددة، كما أنها تشتمل على شخصيات مختلفة المناصب والأفكار والمعتقدات والوظائف والأوصاف التي تشكل عالماً متنوعاً وحيوياً، مما يجعل الصراع في هذه القصص عاملاً من عوامل الترسيخ في أعماق الذاكرة الإنسانية ولذلك يستخدم القرآن الكريم عبارات القصص من أنها عبرة وتذكير.

إن القصة القرآنية وجه من وجوه الإعجاز القرآني الكريم: بلاغياً، وفكرياً، ونهجاً. فقد توافر فيها جانب الإبداع الأدبي الغني بكل مقوّماته، وتوافر فيها التكامل الفكري، بكل تماسكه ووضوحه، وتوافر فيها الدأب لتحقيق الهدف من إنزال القرآن الكريم. فالقصة في القرآن الكريم ليست غاية فنية وإنما أسلوب فني لخدمة الأغراض الأخلاقية السامية التي جاءت بها الأديان وخاصة الإسلام. ولذلك فإن فلسفة القصة في القرآن الكريم تقوم على الغاية القصوى وليس على الوسيلة. فالقصة وسيلة مساعدة بما تملكه من مقومات فنية عالية قادرة على الوصول إلى العقل والقلب معاً.

والملاحظ: أن القصة في القرآن الكريم لم تنتظم قصص الأنبياء وحياتهم، وأساليب دعواتهم، والعقبات التي واجهوها في تبليغ رسالاتهم فقط، بل انتظمت القصة القرآنية حياة غير الأنبياء كلقمان الحكيم، وذي القرنين، وبلقيس، وقرىً ومدناً وجماعات مثل أهل الكهف وثمود وعاد في سياق وضع العالم القديم أمام المسلمين للتعرف عليهم ودراسته وأخذ العبرة منه وجعله مكملاً لتاريخ الرسالات، وأكثر من هذا أيضاً فإن عناصر تناول هذه القرى والجماعات والأقوام تقود إلى تكامل الحياة البشرية والكشف عن الطبيعة البشرية وتقلباتها في الأزمنة والأمكنة المختلفة.

وقد جاء كثير من هذه القصص ليعبّر عن وجود الحيوان والجماد ويكشف كثيراً من الصفات الغريزية للحيوان وعلاقته بالحياة اليومية للإنسان حيث ورد ذكر الكلب والحمار في دلالات مختلفة تحمل طابع ضرب المثل المؤكد أو الوصف أو الإستخدام البشري لهما. وكل ذلك يحمل في بنيته التاريخية والفنية معاً عبرةً لذوي الألباب... فما هي فلسفة القصة في القرآن الكريم؟

يقول شيخنا الأستاذ آية الله الهرندي (دام ظله):

إنني بحسب ما أفهمه أنا ـ ولا أنسب هذا الفهم إلى الكتاب الكريم ـ أن الكتاب الكريم جاء لعامّة البشرية فإذا أُريد جلب عامّة البشرية، فلابد من إيجاد قاسم مشترك، وتاريخ مشترك، ورؤية مشتركة. بل إن التحرّك على الآخرين قبل صنع الأسس المشتركة بينهم يكون مستحيلاً، ذلك كمن يتكلم مع العربي باللغة الانكليزية.

فالشرط الأول هو وضع الأسس المشتركة، وصنع الرموز المشتركة: لغة، قصة، حديث، تمثيل، شعر.. الخ. أي: كل شيء يمكن أن يكون رمزاً مشتركاً، كي يُثار انتباه الطرف الثاني.

إن القصة في القرآن الكريم جاءت لتلبية الحاجة. فاليهود ـ مثلاً ـ عندما يجدون اسم نبيّهم موسى عليه السلام متحدّثاً عنه من خلال (١٣٦) آية من القرآن الكريم، فلابد من أن ينشدّ إليه، ويقبل على قراءته، وفهمه، ودراسته، وأخذ المعلومة منه، وتقصّي الحقائق من خلاله، بل والتعاطف معه، وخاصّة أن الكتاب الكريم تحدّث عن موسى عليه السلام بكل ودّ واحترام وتقدير. وهذا يؤكد، من ناحية، وحدة الأديان ووحدة مصدر الرسالات السماوية ووحدة أهدافها وتكامل بعضها مع البعض الاخر، ومن ناحية أخرى لتأكيد وحدة الإنسانية وواحدية الألوهية.

وهكذا وجود ذكر عيسى عليه السلام بكل ذلك الثقل الكبير الذي يمثّله في القرآن الكريم، والذي يدخل في صميم العقيدة المستنيرة، لذا نرى المسيحي ينجذب إليه لما يجد من إكرام لعيسى عليه السلام، وأمه مريم عليها السلام، وما يمثّلانه من إعجاز في الإبتداء والإنتهاء. وهذا بدوره يربط الوظائف النبوية والرسالات السماوية باعتبارها موجهة للناس كافة على مراحل، ومن خلال تنوع الجغرافيا والتاريخ والمختارين من الأنبياء لتأكيد فلسفة القصص في القرآن وكونها فلسفة تهدف إلى تأكيد الأهداف الرسالية باعتبارها تنوع في أطار

الوحدة وباعتبارها صادرة من مصدر واحد وباعتبارها أيضاً تهدف إلى سعادة البشر من خلال الإيمان.

وأمرٌ آخر ـ تؤكّده القصة القرآنية وترمز إليه ـ وهو هذا الحديث بكل ثقة واطمئنان عن وقائع حدثت، وأحداث جرت من قرون عديدة، وأحكام أديان، ودقائق أمورها، وخصائصها. هذا الحديث جرى على لسان النبي الأميّ محمد ﷺ ـ وهذا وجه إعجازي، وبرهان ناطق بصدق نبوة محمد ﷺ. ففي منطقة تنعدم فيها كل أنواع الحضارة، وتنعدم فيها كل وسائل الإتصال، يعيش فيها بشر جهّال، لا يعرفون للحياة معنىً، يظهر رجل يعرف خصائص الأديان، وعمق تلك الأديان، ويتعرّض إلى رموز تلك الأديان السماوية، فيبدأ من آدم عليه السلام ثم يتعرّض إلى نوح وشيث ولوط وإبراهيم وموسى وعيسى (عليهم وعلى نبينا آلاف التحية والثناء) وهكذا كل الأنبياء عليهم السلام الذين بعثهم الله سبحانه. فمثلاً يتعرض القرآن الكريم في قصصه إلى أدقّ المراحل التي مرّ بها بنو إسرائيل، فلابد لليهودي ـ حينئذ ـ من أن يلتفت إلى الحقائق الأخرى الموجودة في القرآن الكريم. وكذلك المسيحي عندما يستعرض الكتاب الكريم يجد أدق التفاصيل عن السيد المسيح عليه السلام، فيعتقد أن هذا الكتاب الكريم عليه بصمة إلهية، وهو ليس من محمد ﷺ إذ لا يمكن لأحد أن يرسم الصورة المتكاملة للسيد المسيح عليه السلام غير الله سبحانه.

قد يقال أن هذه الحقائق التي ورد ذكرها في القرآن الكريم معروفة مشهورة...

إننا نقول: من أين للنبي محمد ﷺ أن يتعرف على نبي الله لوط، وشيث، ويعقوب، والخضر وغيرهم ﵈؟ بل على كثير من القضايا الدقيقة التي تعرّض لها القرآن الكريم بتفاصيلها الدقيقة، والتاريخية، والشخصية والجماعية سواء ما كان منها من أحداث وقعت للأنبياء مع أقوامهم أو ما كان منها من وقائع جرت على أمم وأقوام في ديار وأراض وأزمان مختلفة؟ فإن ذكر هذه التفاصيل الدقيقة دليل على أن الكتاب من الله ـ تعالى ـ.

وتأتي قصص القرآن في أطار فلسفة اليقين من خلال البرهان كما تعرفه الفلسفة في الإسلام من أن (البرهان هو قياس مؤلف من مقدمات يقينية لإنتاج اليقين، لأن اليقينيات منها الأوليات وهي قضايا يصدّق بها العقل لذاتها أي بدون سبب خارج عن ذاتها،... والمشاهدات وتسمى المحسوسات وهي القضايا التي يحكم بها العقل بواسطة الحس... والمجربات وهي القضايا التي يحكم بها العقل بواسطة تكرر المشاهدة منا في إحساسنا فيحس بتكرر المشاهدة ما يوجب أن يرسخ في النفس حكم لاشك فيه كالحكم بأن كل نار حارة، والحدسيات وهي قضايا مبدأ الحكم بها حدس من النفس قوي جداً يزول معه الشك كقولنا بالقمر وزهرة وعطارد وسائر الكواكب السيارة مستفاد نورها من نور الشمس، والمتواترات وهي قضايا تسكن إليها النفس سكوناً يزول معه الشك ويحصل

الجزم القاطع وذلك بواسطة إخبار جماعة يمتنع تواطؤهم على الكذب ويمتنع اتفاق خطأهم في فهم الحادثة كحديث الغدير الوارد في خلافة علي بن أبي طالب عليه السلام بلا فصل وكنزول القرآن على محمد صلى الله عليه وآله...)[١].

يتضح أن جزءً كبيراً من الجوانب الفلسفية للقصة في القرآن يقوم على إثبات البرهان وتأسيس اليقين وذلك من خلال المجربات والمتواترات، وهي وقائع التاريخ والأحداث التي شاهدها أناس تلك الأحداث أثناء وقوعها في زمانها وإدراكها وتقديرها عبر الحدسيات النابعة من النفس بصورة قوية جداً من قبل الناس الذين يسمعون تلك القصص وهم المسلمون.

وتأتي هذه القصص في فلسفتها الرامية إلى مطابقة المفهوم وهو نفس الصورة المنتزعة من حقائق الأشياء مع المصداق وهو ماينطبق عليه المفهوم كما تعرفهما الفلسفة الإسلامية، وفي هذه الحالة فإن فلسفة القصة في القرآن هي سوق البراهين والمفاهيم للدلالة على المصداق لإثبات الوحدانية وتكريس الثقة بالقدرة الإلهية باعتبارها قدرة خالقة وقادرة وعاقلة تسوق المشاهدات والوقائع التاريخية للبرهنة وتثبيت المصاديق للناس لكي يؤمنوا عن طريق العقل والحدس النفسي والتجربة ونقل المشاهدة التاريخة إلى زمن جديد آخر هو زمن البعثة.

---

(١) السيد إبراهيم الموسوي الزنجاني: بداية الفلسفة الإسلامية/ ٣٧ ـ ٣٨، مؤسسة الوفاء، بيروت لبنان، ١٩٨٢م.

إن التمعن بشكل عميق في فلسفة القصة القرآنية يقودنا إلى العثور على الأسس الفلسفية في الإسلام الخاصة بالدلالة على الذات الالهية وعلى الوجود والنفس والحس والإدراك والعقل والموجودات والإرادة الإلهية والخلق والغيب والحادث وغيرها، ولذلك فإن قصة يوسف مثال ساطع على أصالة هذه الأسس ووضوحها بشكل خاص.

إن ايراد قصص الأنبياء مثل موسى عليه السلام كما أسلفنا وعيسى عليه السلام يهدف أيضاً إلى بث اليقين في نفوس اليهود والمسيحيين بوحدة الدين وقرابة الأنبياء بعضهم لبعض في الوظيفة والرسالة والوحي، فيجد صاحب كل دين رموزه في الكتاب الكريم، فتشكل لغة مشتركة بين الجميع، ورموزاً مشتركة بين الكتاب الكريم والكتب السماوية الأخرى، لتحقيق وحدة الأديان كما أسلفنا ووحدة الخالق ووحدة البشرية باعتبارها مخلوقة من قبل خالق واحد عزيز وقادر على وضع الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة وهو ما جاءت بذكره معظم قصص القرآن الكريم.

وبحسب ما نفهمه وما نعتقده من الآيات والسور المباركة: أنها جاءت لربط الشريعة المقدّسة بعامّة البشرية، وذلك بإدخال رموزها في الكتاب الكريم لتؤسّس بناءً مشتركاً، وأساساً متيناً لوحدة الدين، ووحدة البشرية، استدلالاً على وحدانية الخالق ـ سبحانه ـ

وبناءً على ما تقدم: فإننا لا نرى صحة قول من قال أو يقول: إن رسول الله ﷺ أخذ المعلومات والتفاصيل الدقيقة من بحيرا

الراهب، أو اليهود الموجودين في يثرب، أو أنه ﷺ أخذها من ورقة بن نوفل.

فاليهود ـ مثلاً ـ أناس منغلقون، لا يعطون مصادرهم لأحد، ولذا عندما كان ﷺ يقرأ شيئاً من القرآن الكريم يندهش اليهود من معرفته ﷺ بأدق التفاصيل، ويسأل بعضهم البعض الآخر، من أين له هذه التفاصيل؟ ثم نجد أن القرآن تجاوز هذه المرحلة إلى رموز تكاد تكون وثنية، كرمز البقرة في القرآن، إذ أن البقرة لها دور كبير في تاريخ الأديان الوثنية وفي حياة الأمم: فهناك بقرة جلجامش، وبقرة مصر، وبقرة آبيس، ثم بقرة الحضارة الهندية (البقرة المقدّسة)، ثم بقرة أمريكا اللاتينية. والبقرة في حياة سيدنا موسى عليه السلام لها دور كبير، فالبقرة الأولى في حياته عليه السلام هي البقرة التي استعان بها لإحياء القتيل.

وكذلك التفاصيل الكثيرة في قصة النبي إبراهيم عليه السلام ورحلاته وهي التفاصيل التي لم تكن معروفة قبل ذلك، والتي حاول علم الآثار اكتشافها في أور ليطابقها مع ماورد في التوراة، بينما جاء بها القرآن الكريم قبل خمسة عشر قرناً ولم تكن معروفة للناس.

كما أن الشمس والقمر كانا معبودين من قبل كثير من الشعوب كما في العراق واليمن ومصر ولكن لم يكن يعرف عن تفاصيل عبادتها شئ في تلك الأزمان وقد ورد ذكر عبادتهما في القرآن الكريم في سياق القصص باعتباره تاريخاً للأمم وتاريخاً للوثنية التي نقضتها الرسالات التوحيدية.

وقد أكد ذلك أمير المؤمنبن علي بن ابي طالب عليه السلام حين قال: (إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً ولا يدعي نبوةً فساق الناس حتى بوأهم محلتهم، وبلغهم منجاتهم، فاستقامت قناتهم، واطمأنت صفاتهم...)(١).

ويقول الشيخ محمد جواد مغنية(٢): وهذه الكلمة على إيجازها تصور جهل العرب قبل الإسلام، فلم يقرأ أحد منهم كتاباً، لتكون له معرفة علمية، أو ينزل عليه وحي، لتكون له معرفة دينية فكل معارفهم البدائية ناشئة عن العادات والتقاليد الموروثة وقد وصف العرب أنفسهم بهذا الجهل حين ردوا على دعوة محمد ورسالته بقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾(٣).

لقد كانت الحياة في شبه الجزيزة محدودة وربما تسربت أخبار اليمن أو الشام إلى مكة من خلال تجار أو مسافرين، ولكنها أخبار تتعلق بالحياة اليومية من بيع وشراء وزرع أو بأحداث مثل الحرب والغزو، ولكن التاريخ كان مجهولاً وقصص الأنبياء مجهولة فهي جاءت إليهم في عهد البعثة من خلال القرآن كعلم وكشف جديدين يحملان الإنبهار وربما الصدمة للبعض ولذلك كانت قصص القرآن جزء أساسياً من معجزة القرآن الكريم.

---

(١) نهج البلاغة: شرح الأستاذ محمد عبده/ ١، ٨١، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان.

(٢) الشيخ محمد جواد مغنية: معالم الفلسفة الإسلامية/ ٢١، مكتبة الهلال.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٢٣.

لقد جاء القرآن الكريم بالقصص لينقل سكان الجزيرة إلى عوالم أخرى وأحداث ومدن وملوك وممالك وأحداث تاريخية كبرى كهلاك عاد وثمود، وبذلك غيّر طريقة التفكير لدى ناس الجزيرة وجعلهم يطلعون على حضارات وثقافات قديمة ومافيها من صراعات وتقلبات وما فيها من طبائع وسلوكيات، حتى دخلت في ثقافة العرب وحياتهم وأمثالهم بعد معرفتهم إياهم، مثل هذه الحادثة التي تقول إن معاوية قال لرجل من أهل اليمن من كان أجهل قومك حين ملّكوا عليهم امرأة، فقال: أجهل من قومي قومك الذين قالوا لما دعاهم الرسول ﷺ: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو أئتنا بعذاب أليم، ولم يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه[١].

فمعرفة معاوية بقصة بلقيس جاءت من قصص القرآن الكريم والرد الذي رد به اليمني جاء من خلال ما نقله القرآن من قصص الصراع بين الكفر والإيمان.

كما أن (رسالة الغفران) التي ألفها أبو العلاء المعري وتابع فيها حياة شعراء وأدباء في الجحيم جاءت من خلال معرفة المعري، كغيره من المسلمين، على أحوال الجنة والنار وأحكام الإسلام في الإيمان والكفر والذنب وغير ذلك من خلال القرآن الكريم وقصص القرآن[٢].

---

(١) الشيخ بهاء الدين العاملي: الكشكول/ ٢، ١٥١، دار الزهراء، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٢.

(٢) يلاحظ لذلك: أبو العلاء المعري: رسالة الغفران/ دار صادر ـ بيروت.

وقد يتساءل البعض: لماذا استعمل سيدنا موسى عليه السلام البقرة، ولم يستعمل حيواناً آخر؟

والجواب: إنّ البقرة كانت من المقدّسات في الحضارة المصرية آنذاك، وإحياء الإنسان من طريق لمس البقرة المذبوحة له تحريك لجذور الوثنية الموجودة في نفوس الناس. أي: إعطاؤها دوراً في الإحياء. وتدلُّ هذه الحركة على أن المواجهة الظاهرية مع الوثنية لا تؤثر ما دامت الجذور باقية، وكامنة في العقول، فلابد من أن تضرب الإنسان في صميمه حتى تظهر عليه الانتكاسات الداخلية لتقضي على الجذور الداخلية.

وهنا ـ أيضاً ـ تعود الدوافع النفسية الموجودة في بني إسرائيل إلى عبادة البقرة (آيبس) تعود لتحيا في منطقة سيناء لتعيد ذكريات البقرة الأولى والرمز المقدّس التي كانت في حياة بني إسرائيل ليقلع البقرة من جذورها. ففي المرة الأولى قتلها ليعلمهم أن المقدس وهو الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يُقتل. وفي المرتبة الثانية أحرقها ونسفها ليدلّل لهم أن المقدس لا يُقتل. وهذه ليست مقدّسة.

وهو ما ينطبق على الحجم كالشمس والقمر حين ينتقل وثني من عبادة القمر إلى الشمس لكبرها أو يعبد الشمس والقمر لظهورهما، أحدهما في الليل والآخر في النهار مما يتناقض مع الوجود الأزلي والسرمدي الدائم لله عز وجل.

إن التاريخ الديني للبشرية مقسم بين الوحدانية والوثنية ولذلك نجد فلسفة القصة في القرآن الكريم تقوم على إظهار الصراع بين

هذين القسمين وسوق البراهين والمصاديق التاريخية الواقعية والغيبية على انتصار الوحدانية.

من هذه وغيرها نكتشف أن الله ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن يمدّ جسراً بين القرآن وبين الشعوب والأديان الأخرى، لذا سمّى أطول سورة في القرآن الكريم بسورة البقرة.

إذن فالله سبحانه وتعالى أراد أن يربط الأمة المصرية القديمة بالقرآن، وكذلك أراد أن يربط الشعب الهندي الذي يقدس البقرة بالقرآن، فيقول لهم: هذه بقرتكم وهذا رمزكم المقدس.

والنتيجة هي أن البقرة رمز يحاول القرآن الكريم من طريقها ومن خلالها أن يثبت أنه كتاب لكل الأديان الموجودة في العالم، وليس مختصاً بأمّة معيّنة وإنما جاء لعموم البشرية.

إذن: فقد يكون سر القصة في القرآن الكريم هو:

* إتمام الحجة على الآخر، فقد يكون الآخر لا يعرف اللغة العربية، فلا يتمكن من قراءة القرآن، ولكنه يعرف نوحاً وإبراهيم ويعقوب ويوسف ولوطاً وإسحاق وإسماعيل عليهم السلام فيجد قصص هؤلاء وغيرهم في القرآن فينجذب إلى القرآن باعتباره سفر البشرية وتاريخ الأديان وسير الأنبياء أيضاً.

* استعمل رموزاً مشتركة بين الأمم، والأديان لكي يثبت بأنه ليس لأمة واحدة، وإنما لجميع الأمم، يجد كل منهم فيه عقيدته وكل ما يرديه من الدين، فهو جسر يربط الشريعة المقدسة بالآخرين، وخاصة أن الإعتراف بهذه الشريعة متوقّف على الإعتراف

بالآخرين السابقين فتخلق من كل هذه لغة مشتركة ورمزاً مقدّساً مشتركاً، وأهدافاً وغايات مشتركة. وهذا ما أطلقنا عليه وحدة الأديان ووحدة المصدر لهذه الأديان.

* مما تجدر الإشارة إليه هو أن الشريعة الموسوية مرت بمراحل متعددة صعبة في التاريخ. ولها دور كبير جداً في تاريخ الأديان. ونجد أن هناك خصوصيات موجودة في بني إسرائيل لم نجدها عند الآخرين. وقصة يوسف تدخل في هذا المضمار لأن يوسف ابن يعقوب وهو ابن إسحاق. واسحاق ابن إبراهيم عليهم السلام ومن ألقاب يعقوب عليه السلام إسرائيل (بني إسرائيل) يعني (أولاد يعقوب). والإسرائيليون الموجودون إن صح فهم أولاد يعقوب النبي عليه السلام. وقبل يعقوب لم يكن هناك إسرائيل. فالأسباط الاثنا عشر هم الظاهرة التي كانت في بني إسرائيل فلهم مزية خاصة.

* علينا عدم خلط القضية السياسية بالقضية الدينية. بنو إسرائيل هم النخبة التي ركّز عليهم الكتاب الكريم وأُشغلوا مساحة كبيرة في داخل القرآن الكريم. نحن وإن اختلفنا مع إسرائيل الغاصبة ولكن لا يستوجب ذلك إهانة أنبياء بني إسرائيل ومنهم نبينا موسى عليه السلام. نعم الإسرائيلون كما نفهم أناس فاسدون وأناس غاصبون ولكن فيهم المؤمن والصالح وهم أبناء الرسالة الإلهية.

فلابد من التمييز بين إسرائيل الغاصبة وبين بني إسرائيل الذين خصّهم الله بالكرامات وبما حمّلهم من الرسالة الإلهية التي نقلوها من العبرانية إلى مصر.

وعليه، نرتبط نحن المسلمين مع بني إسرائيل في سلسلة النبوّة والرسالة الإلهية فمحمد ﷺ من نسل إسماعيل بن إبراهيم، وبنو إسرائيل من نسل إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.



الفصل الثالث

قصة يوسف.. نموذجاً

وفيه بحوث:

توطئة

البحث الأول: مرتكزات أساسية في سورة يوسف عليه السلام

البحث الثاني: قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم

البحث الثالث: يوسف عليه السلام كما يصفه القرآن

البحث الرابع: المفاصل الرئيسة لقصة يوسف عليه السلام في التوراة والقرآن الكريم

البحث الخامس: الشكل الفني لقصة يوسف عليه السلام

البحث السادس: الشخصيات والأحداث البارزة في قصة يوسف عليه السلام

البحث السابع: العِبر والدروس التي نستخلصها من قصة يوسف عليه السلام

توطئة

ربما تكون قصة يوسف عليه السلام أشهر قصص القرآن الكريم وأكثرها تشبعاً بالروح القصصية من شخصيات وأحداث وصور وحبكة، أي مايعبر عنه اليوم بالدراما. إضافة إلى أن قصة يوسف عليه السلام تنتقل عبر أجيال متعددة من خلال أخوة يوسف عليه السلام الذين ألقوه في البئر، ثم مضيه عليه السلام مع القافلة إلى مصر ولقائه الفرعون وعودة الأخوة في سنوات المجاعة. أي أن التطور الزمني للقصة يأخذ مساحة شاسعة تملؤها الأحداث والمفاجئات.

افتتاحية القصة حلم وتفسير لهذا الحلم، ثم تتطور القصة لتحقيق مفردات الحلم بشكل درامي مليء بالتوتر وانتظار النتائج.

إن اللغة التي تقص بها قصة يوسف عليه السلام تحتوي على مفردات وجمل ايقاعية ترفع درجة التشويق إلى أعلى الدرجات وتجعل السامع في حالة ترقب لما بعد الحدث. كما أن عناصر القصة تقوم على ذئب غير مرئي. إنه شخصية خارج مشهد القص الروائي رغم أنه يلعب دوراً درامياً عميقاً يموت بموجبه يوسف عليه السلام حسب إخبارية اخوته لأبيه.

أصبحت قصة يوسف القرآنية شائعة لدرجة أنها دخلت في أمثال

الناس وأعيد انتاج مضمونها ومعانيها في قصص وروايات عديدة. والقصة تبدأ من صراع الخير والشر. فتحذير يعقوب عليه السلام لابنه يوسف عليه السلام ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1]. إن الكيد يأخذ مداه حيث ينتقل من أخوة يوسف إلى امرأة العزيز. والضحية هي واحدة: يوسف نفسه. أي الشخصية الرئيسية للقصة.

تربط القصة حياة كثير من الأنبياء وتروي أساس العلاقة بين يوسف وإبراهيم عليهما السلام، كما تروي طبيعة النفس البشرية وسعيها إلى الصراعات لتحقيق المصالح الشخصية. وهي صراعات واقعية تحدث في عوائل كثيرة وفي مجتمعات مختلفة، وهي مادة قصصية وروائية لعدد هائل جداً من المؤلفات الروائية على مر التاريخ وفي مختلف الآداب.

تجري قصة يوسف عليه السلام من خلال راوٍ يتدخل بين فترة وأخرى لتحديد المعاني والمقاصد ويقوم مقام الشارح أيضاً. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يقرر قصة يوسف عليه السلام من خلال الآية المباركة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[2]. فالقصة ليست قطعة متواصلة بدون تدخل من قبل القاص، حيث يأتي التدخل أحياناً داخل الآية نفسها بدون توقف مثل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن

---

(١) سورة يوسف: الآية ٥.

(٢) سورة يوسف: الآية ٣.

يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١]. هذا التداخل بين الراوي والحدث يشكل أحد القيم الفنية المتميزة للقص القرآني. فالراوي لا يخرج من سياق الآية لأنه الرب، بينما الراوي الذي يتدخل لتقديم الأحداث أو ربطها في الرواية البشرية لا يستطع فعل ذلك لأنه ينقل الواقع أو يعكسه. فهو ليس طرفاً خالق فيه وإنما طرف ناقل. وهذه ميزة للقصة القرآنية لا تحتوي عليها القصة البشرية.

إن تطور قصة يوسف عليه السلام يربط الأحداث ببعضها من خلال أسباب روائية غاية في التوتر والتشويق.

إن البنية القصصية تتماسك بشكل عميق لتقود من حدث إلى آخر يكون نتيجة لحدث سابق. مثل قصة تفسير يوسف عليه السلام لأحلام السجينين ثم الحاجة إليه بعد سنوات ليفسر حلم الملك، ومثل قيامه على الأرزاق والأموال ليقابل اخوته الذين كادوا له. ثم ليجتمع شمله مع أبيه من خلال دراما قصصية تعتمد الإنتقال بالأحداث وربطها ببعض في نفس الوقت.

إن قصة يوسف عليه السلام تتطور وفق سياق متتابع ولكن انتقالي يعتمد على تأجيل الإفصاح عن الحدث القادم مما يرفع درجات التوشيق إلى أقصاها.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢١.

وحين نتحدث عن قصة في سورة يوسف عليه السلام فمعنى ذلك إننا نتحدث عن أهمية الحوار وموقعه ووظيفته في هذه القصة، وهو حوار غاية في الإختصار وعمق الغرض ووضوحه، وهو يجري مقتضباً لتحقيق فائدة كشف النص كله. أي أن في الحوار فائدة مكملة في كثير من الأحيان ولكنه في كل الأحيان الخيط الذي يربط الأحداث والمعاني ويؤدي الغرض الأساسي من إيصال الهدف الإنساني والتاريخي والديني.



البحث الأول
مرتكزات أساسية في سورة يوسف عليه السلام

إن قصة يوسف تقوم على مرتكزات اساسية هي:

١. إن سورة يوسف عليه السلام هي السورة الوحيدة من السور الطوال في القرآن الكريم تختص بسرد قصة واحدة تستغرق السورة بأكملها دون أن يتخللها نثر غير قصصي عدا الآيات التسعة التي تنتهي السورة بها. وهي ـ في الواقع ـ تعقيب على القصة ذاتها.

ومن الواضح أن تخصيص سورة بأكملها لقصة واحدة، يتحرك من خلالها بطل رئيس واحد، ثم أبطال ثانويون يتحركون ضمن ذلك البطل، أقول: إن تخصيص سورة بأكملها لقصة واحدة إنما يكشف عن أهمية هذه القصة وما تنطوي عليه من دلالات خطيرة ينبغي أن نضعها في الإعتبار.

٢. إن أهمية قصة يوسف عليه السلام تتمثل في تضمنها أحداثاً ومواقف في غاية الإثارة، وهذه الإثارة ناجمة عن كونها تتصل بأهم الدوافع لدى الإنسان، وأشدها إلحاحاً، وفي مقدّمتها: الحسد والغيرة، ثم الدافع الجنسي. وهي دوافع مُلحة لا يكاد يتحرر الإنسان منها إلاّ بالتدريب الشاق من خلال الوعي الإسلامي.

هناك ـ أيضاً ـ دافع ثالث مُلح بدوره، تكشف القصة عنه ألا هو دافع السيطرة أو التخوّف.

وفضلاً عن ذلك كله، ثمة دوافع وحاجات وميول ومواقف تكشف القصة عنها مبيّنة لنا طرائق التعامل معها، وإشباعها بالطريقة السوية أو الشاذة.

٣. إن غرض السورة، بيان ولاية الله لعبده الذي أخلص إيمانه له تعالى إخلاصاً، وامتلأ بمحبّته تعالى لا يبتغي له بدلاً ولم يلو إلى غيره تعالى سن شيء، وإن الله تعالى يتولّى هو أمره، فيربّيه أحسن تربية، فيورده مورد القرب، ويسقيه فيرويه من مشرعة الزلفى، فيخلصه لنفسه ويحييه حياة إلهية، وإن كانت الأسباب الظاهرة أجمعت على هلاكه، ويرفعه وإن توفرت الحوادث على ضعته، ويعزّه وإن دعت النوائب إلى ذلته، وحطّ قدره.



البحث الثاني
قصة يوسف ﷺ في القرآن الكريم

هو يوسف النبي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، كان أحد أبناء يعقوب الاثني عشر، وأصغر اخوته غير أخيه بنيامين.

وكانت النبوة في يعقوب الذي أمره إسحاق بالمسير إلى أرض الشام (وبشره بالنبوة ونبوة أولاده...، وهم لاوي ويهوذا ويساخر وزبولون ويوسف وبنيامين ودان ونفتالي وكان واشار وشمعون وروبيل وهؤلاء هم الأسباط الإثنا عشر، والنبوة والملك في عقب أربعة منهم: لاوي ويهوذا ويوسف وبنيامين)[1].

وكان أحب ولد يعقوب ﷺ إليه يوسف ﷺ، فحسده أخوته على ذلك[2].

أراد الله سبحانه أن يُتمّ عليه نعمته بالعلم، والحلم، والعزّة والملك، ويرفع به قدر آل يعقوب، فبشّره ـ وهو صغير ـ برؤيا

---

(١) على بن الحسين ابن علي المسعودي: مروج الذهب/ ١، ٤٧، المكتبة الإسلامية، بيروت.
(٢) المصدر المتقدم.

رآها: كأنّ أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدة له، فذكر ذلك لأبيه، فوصّاه أبوه ألا يقصّ رؤياه على اخوته، فيحسدوه. ثم أوّلَ رؤياه: أن الله سيجتبيه ويعلمه من تأويل الأحاديث، ويتم نعمته عليه، وعلى آل يعقوب، كما أتمّها على أبويه من قبل إبراهيم واسحاق عليهما السلام.

كانت هذه الرؤيا نصب عين يوسف آخذةً بمجامع قلبه، ولا يزال تنزع نفسه إلى حب ربه، والتولّه إليه على ما به من علوّ النفس وصفاء الروح والخصائص الحميدة، وكان ذا جمال بديع يبهر العقول ويدهش الألباب، وهو ماستؤمّنه القصة القرآنية ويكون من الأحداث الرئيسية في القصة وعاملاً أساسياً للبناء القصصي. وكان يعقوب عليه السلام يحبه حباً شديداً لما يشاهد فيه من الجمال البديع، ويتفرّس فيه من صفاء السريرة، ولا يفارقه ولا ساعة، فثقل ذلك على اخوته الكبار، واشتدّ حسدهم له حتى اجتمعوا، وتآمروا في أمره: فمن مشير على قتله، ومن قائل: ﴿ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾[1]، ثم أجتمع رأيهم على ما أشار به عليهم بعضهم وهو أن يلقوه في غيابة الجبّ ليلتقطه بعض السيارة، وعقدوا على ذلك. فلقوا أباهم، وكلّموه أن يرسل يوسف معهم غداً يرتع، ويلعب وهم له حافظون.فلم يرضَ بذلك يعقوب واعتذر أنه يخاف أن يأكله الذئب، فلم يزالوا به يراودونه حتى أرضوه وأخذوه منه، وذهبوا به معهم إلى مراتع أغنامهم بالبر،

(١) سورة يوسف: الآية ٩.

فألقوه في جبٍّ هناك، وقد نزعوا قميصه. ثم جاؤوا بقميصه ملطّخاً بدمٍ كذب إلى أبيهم وهم يبكون، فأخبروه أنهم ذهبوا اليوم للاستباق وتركوا يوسف عند متاعهم، فأكله الذئب وهذا قميصه الملطّخ بدمه، فبكى يعقوب وقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1]، ولم يقل ذلك إلاّ بتفرّس إلهي، ألقي في روعه، ولم يزل يعقوب يذكر يوسف ويبكي عليه ولا يتسلى عنه بشيء حتى ابيضّت عيناه من الحزن وهو كظيم، ومضى بنوه يراقبون الجبّ حتى جاءت سيارة فأرسلوا واردهم للاستسقاء فأدلى دلوه، فتعلّق يوسف بالدّلو، فخرج، فاستبشروا به، فدنا منهم بنو يعقوب، وادّعوا أنه عبد لهم، ثم ساوموهم حتى شروه بثمن بخسٍ دراهم معدودة. وسارت به السيارة إلى مصر، وعرضوه للبيع، فاشتراه عزيز مصر. وأدخله بيته وقال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[2]. وذلك لما كان يشاهد في وجهه من آثار الجلال، وصفاء الروح على ما له من الجمال البديع، فاستقرّ يوسف في بيت العزيز في كرامة، وأهنأ عيش.

وهذا أول ما ظهر من لطيف عناية الله بيوسف وعزيز ولايته له، حيث توسّل اخوته بإلقائه في الجبّ وبيعه من السيارة إلى إماتة ذكره، وحرمانه من كرامة الحياة في بيت أبيه. أما إماتة الذكر، فلم ينسه أبوه قط، إذ ظل يبكي عليه حتى ابيضت عيناه من الحزن، وهي

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٨.
(٢) سورة يوسف: الآية ٢١.

صورة بيانية رائعة ومختصرة للدلالة على الأثر العميق الذي أصاب يعقوب وهي من جماليات التصوير الفني في القرآن. وأما مَزية الحياة فإن الله سبحانه بدّل له بيت الشَعر والمعيشة البدوية قصراً ملكياً وحياة حضرية راقية، فرفع الله قدره بعين ما أرادوا أن يحطوه ويضعوه وعلى ذلك جرى صنع الله به ما سار في مسير الحوادث.

وعاش يوسف في بيت العزيز في أهنأ عيش حتى كبر، وبلغ أشدّه، ولم يزل تزكو نفسه ويصفو قلبه ويشتغل بربّه حتى تولّه في حبّه وأخلص له، فصار لا همّ له إلاّ فيه، فاجتباه الله، وأخلصه لنفسه وأتاه حكماً وعلماً وكذلك يفعل بالمحسنين.

وعشقته امرأة العزيز، وشغفها حبّه حتى راودته عن نفسه وغلّقت الأبواب ودعته إلى نفسها «وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ»[1] فامتنع يوسف، واعتصم بعصمة إلهية وقال ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2] واستبقا الباب واجتذبته، وقدّت قميصه من خلف وألفيا سيّدها لدى الباب، فاتهمت يوسف بأنه كان يريد بها سوءاً، وأنكر يوسف ذلك غير أن العناية الإلهية أدركته، فشهد صبيّ هناك في المهد ببراءته، فبرأه الله.

ثم ابتلي بحبّ نساء مصر، ومراودتهن، وشاع أمر امرأة العزيز حتى آل الأمر إلى دخوله السجن، وقد توسّلت امرأة العزيز بذلك إلى تأديبه ليجيبها إلى ما تريد، والعزيز إلى أن يسكت هذه

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢٣.
(٢) سورة يوسف: الآية ٢٣.

الأراجيف الشائعة التي كانت تذهب بكرامة بيته وتشوّه سمعته. فدخل يوسف السجن. ودخل معه السجن فتيان للملك، فذكر أحدهما أنه رأى في منامه أنه يعصر خمراً، والآخر أنه يحمل فوق رأسه خبزاً، تأكل الطير منه، وسألاه أن يؤوّل منامتهما. فأوّل رؤيا الأول أنه سيخرج فيصير ساقياً للملك، ورؤيا الثاني أنه سيصلب فتأكل الطير من رأسه، فكان كما قال، وقال يوسف للذي رأى أنه ناجٍ منهما: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[1] وبعد بضع من السنين رأى الملك رؤيا هالته، فذكرها لملئه وقال: ﴿إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ۞ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾[2]، وعند ذلك ادّكر الساقي يوسف وتعبيره لمنامه، فذكر ذلك للملك واستأذنه أن يراجع السجن، ويستفتي في أمر الرؤيا، فاذن له في ذلك وأرسله إليه. ولما جاءه في أمر الرؤيا وذكر أن الناس ينتظرون أن يكشف لهم أمرها قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۞ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۞ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[3].

---

(١) سورة يوسف: الآية ٤٢.
(٢) سورة يوسف: الآيتان ٤٣ ـ ٤٤.
(٣) سورة يوسف: الآيات ٤٧ ـ ٤٩.

فلما سمع الملك ما أفتى به يوسف أعجبه ذلك وأمر بإطلاقه، وإحضاره، ولما جاءه الرسول لتنفيذ أمر الملك، أبى الخروج والحضور إلاّ أن يحقّق ما جرى بينه وبين النسوة، ويحكم بينه وبينهنّ ولما أحضرهنّ، وكلّمن في أمره، اتفقن على تبرئته من جميع ما اتُّهم به ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[1]. وقال امرأة العزيز ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[2] فاستعظم الملك أمره في علمه واستقامته وامانته، فأمر بإطلاقه وإحضاره معززاً وقال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[3]. قال يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أرض مصر ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[4] حتى أهيء الدولة في هذه السنين السبع المخصبة التي تجري على الناس للعمل على نجاتهم مما يهدّدهم من السنين السبع المجدبة، فأجابه الملك على ذلك فقام يوسف بالأمر، وأمر بإجادة الزرع وإكثاره، وجمع الطعام والميرة وحفظه في المخازن بالحزم والتدبير.حتى إذا دهمهم السنون المجدبة، وضع فيهم الأرزاق، وقسّم بينهم الطعام حتى أنجاهم الله بذلك من المخمصة. وفي هذه السنين انتصب يوسف لمقام عزّة مصر، واستولى على سرير الملك، السجن طريقاً له، يسلك به إلى

---

(١) سورة يوسف: الآية ٥١.

(٢) سورة يوسف: الآية ٥١.

(٣) سورة يوسف: الآية ٥٤.

(٤) سورة يوسف: الآية ٥٥.

أريكة العزّة والملك بإذن الله. وقد كانوا تسبّبوا به إلى إخماد ذكره، وإنسائه من قلوب الناس، وإخفائه من أعينهم.

وفي بعض تلك السنين المجدبة دخل على يوسف اخوته لأخذ الطعام، فعرفهم وهم له منكرون.فاستفسرهم عن شأنهم وعن أنفسهم،فذكروا له أنهم أبناء يعقوب وأنهم أحد عشر أخاً أصغرهم عند أبيهم يأنس به، ولا يدعه يفارقه قطّ، فأظهر يوسف أنه يشتاق أن يراه فيعرف ما باله يخصه أبوه بنفسه فأمرهم أن يأتوه به إن رجعوا إليه ثانياً للامتيار، وزاد في إكرامهم، وإيفاء كيلهم، فأعطوه العهد بذلك، وأمر فتيانه أن يدسوا بضاعتهم في رحالهم، لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون. ولما رجعوا إلى أبيهم حدّثوه بما جرى بينهم وبين عزيز مصر، وأنه منع منهم الكيل إلاّ أن يرجعوا إليه بأخيهم بنيامين، فامتنع أبوهم من ذلك، ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم، فراجعوا أباهم، وذكروا له ذلك، وأصرّوا على إرسال بنيامين معهم إلى مصر، وهو يأبى حتى وافقهم على ذلك بعد أن أخذ منهم موثقاً من الله ليأتننّه به إلاّ أن يحاط بهم. ثم تجهّزوا ثانياً، وسافروا إلى مصر ومعهم بنيامين، ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه، وعرّفه نفسه وقال: إني أنا أخوك، وأخبره أنه يريد أن يحبسه عنده، فعليه ألا يبتئس بما سيشاهد من الكيد.

ولما جهّزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ * قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ

ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ * قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ * قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ * قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] كذلك نجزي السارق فيما بيننا: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾[2]. ثم أمر بالقبض عليه، واسترقه بذلك.

فراجعه اخوته في اطلاقه حتى سألوه أن يأخذ أحدهم مكانه رحمةً بأبيه الشيخ الكبير فلم ينفع فرجعوا إلى أبيهم آيسين غير أن كبيرهم قال لهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[3] فبقي في مصر، وساروا. فلما رجعوا إلى أبيهم، وقصّوا عليه القصص، قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾[4]. ثم: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[5] فلما لاموه على حزنه الطويل، ووجده ليوسف: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[6] ثم قال لهم:

---

(١) سورة يوسف: الآيات ٧٠ ـ ٧٥.
(٢) سورة يوسف: الآية ٧٦.
(٣) سورة يوسف: الآية ٨٠.
(٤) سورة يوسف: الآية ٨٣.
(٥) سورة يوسف: الآية ٨٤.
(٦) سورة يوسف: الآية ٨٦.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾[1] فإني أرجو أن تظفروا بهما.

فسار نفرٌ منهم إلى مصر، واستأذنوا على يوسف فلمّا شخصوا عنده، تضرّعوا إليه، واسترحموه في أنفسهم، وأهلهم، وأخيهم الذي استرقه قائلين: يا أيها العزيز: قد مسّنا وأهلنا الضر بالجدب والسّنة، وجئنا ببضاعة مزجاة فأوفِ لنا الكيل، وتصدّق علينا بأخينا الذي تملكته بالاسترقاق إن الله يجزي المتصدّقين. وعند ذلك حقّت كلمته تعالى ليعزّن يوسف بالرغم من استذلالهم له وليرفعن قدره وقدر أخيه وليضعن الباغين الحاسدين لهما، فأراد يوسف أن يعرّفهم نفسه، وقال لهم: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ * قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ * قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾[2]. فاعترفوا بذنبهم وشهِدوا أن الأمر إلى الله يُعزُّ من يشاء، ويُذِلُّ من يشاءُ، وأن العاقبة للمتقين وأن الله مع الصابرين، فقابلهم يوسف بالعفو والاستغفار و ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾[3] وقرّبهم إليه، وزاد في إكرامهم.

ثم أمرهم أن يرجعوا إلى أهليهم، ويذهبوا بقميصه فيلقوه على

---

(١) سورة يوسف: الآية ٨٧.
(٢) سورة يوسف: الآيات ٨٩ ـ ٩١.
(٣) سورة يوسف: الآية ٩٢.

وجه أبيه يأتِ بصيراً، فتجهّزوا للسير، ولما فصلت العير قال يعقوب لمن عنده من بنيه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾[١]، قال من عنده من بنيه: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[٢]. ولما جاءه البشير، ألقى القميص على وجهه، فارتدّ بصيراً، فردّ الله سبحانه إليه بصره بعين ما ذهب به وهو القميص. قال يعقوب لبنيه: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٣] ثم تجهّزوا للمسير إلى يوسف، واستقبلهم يوسف، وضمّ إليه أبويه، وأعطاهم الأمن وأدخلهم دار الملك، ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجّداً يعقوب وامرأته وأحد عشر من ولده. قال يوسف: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾[٤]. ثم شكر الله على لطيف صنعه في دفع النوائب العظام عنه، وإيتائه الملك والعلم. وبقي آلُ يعقوب بمصر. وكان أهل مصر يحبّون يوسف حباً شديداً لفضل نعمته عليهم، وحُسن بلائه فيهم، وكان يدعوهم إلى دين التوحيد وملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام.



---

(١) سورة يوسف: الآية ٩٤.
(٢) سورة يوسف: الآية ٩٥.
(٣) سورة يوسف: الآية ٩٦ ـ ٩٨.
(٤) سورة يوسف: الآية ١٠٠.

البحث الثالث
يوسف عليه السلام كما يصفه القرآن

يظهر لمن يتأمل في بيانات قصة يوسف عليه السلام وتلبّث عند مقاطعها مليّاً أن هناك إنساناً، أعطي جميع الإمكانات الدنيوية سواء على المستوى الفردي، أو الاجتماعي من المال، والجمال، والمنصب، وتهيأت بين يديه جميع الأسباب التي تدفع نحو الإنحراف الفردي والإجتماعي أيضاً إلاّ أنه مع ذلك كله بقي عبداً مخلصاً لربّه عزّ وجل وخرج من غياهب هذا الإمتحان المرير صابراً مظفّراً فائزاً بولاية الله سبحانه وتعالى.

في ضوء هذا الدرس العظيم الذي تعطيه هذه السورة المباركة سوف نقف إجمالاً على مجموعة من الأوصاف التي ذكرها القرآن ليوسف عليه السلام بحسب ما تنصّ عليه الآيات الكريمة التي تحدّثت عن تفاصيل قصته:

١. يوسف من المجتبين. نصّ على ذلك قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾[1].

---

(١) سورة يوسف: الآية ٦.

٢. يوسف ممّن عُلّم تأويل الأحاديث. كما نصّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾(١). وأي نعمة أشرف من هذه النعمة التي تفتح أمام العبد أبواب ملكوت السماوات والأرض، ومن هنا قالت الآية الكريمة: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾(٢).

٣. يوسف والعلم بالغيب. فالله سبحانه يمكن أن يطلع بعض عباده على غيبه بمقتضى قوله سبحانه: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾(٣). فأثبت سبحانه العلم بالغيب لغيره وهو ﴿مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ فإنه ـ أيضاً ـ أثبت ليوسف عليه السلام العلم بالغيب في غير موضع من سورته المباركة كما قال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(٤).

٤. يوسف ممّن أوتي الحكمة والعلم والبرهان الإلهي. أما العلم والحكمة فقد نصّ عليهما قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٥). وأما البرهان الإلهي، فهو ما نصّت عليه السورة في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ﴾(٦).

---

(١) سورة يوسف: الآية ٦.
(٢) سورة يوسف: الآية ٦.
(٣) سورة الجن: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.
(٤) سورة يوسف: الآية ١٥.
(٥) سورة يوسف: الآية ٢٢.
(٦) سورة يوسف: الآية ٢٤.

٥. يوسف من المخلصين. نص على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[(١)].

٦. يوسف ومقام التوحيد الحقيقي. تتضح المعالم الأساسية لهذا المقام الرباني الشامخ من التوحيد انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾[(٢)]. ثم مروراً بقوله تعالى بعد ذلك ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾[(٣)].

يقرّر العلاّمة الطباطبائي في هذا المجال في تفسيره الميزان أن قوله ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ يدلّ على أربعة أمور:

الأول: أنه عليه السلام موحّد لا يرى شرك الوثنية فليس ممّن يتخذُ أرباباً من دون الله.

الثاني: أنه عليه السلام ليس ممّن يوحّد الله سبحانه قولاً، ويُشرك به فعلاً، بل هو يرى أن الله سبحانه هو الذي أحسن مثواه وأنه ربّه الذي يتولى تدبير أمره، فعليه أن يعوذ به.

الثالث: أنه إنما تعوّذ بالله مماّ تدعوه إليه لأنه ظلم لا يفلح المتلبس به، ولا يهتدي إلى سعادته، ولا يتمكن من حضرة الأمن عند ربه.

الرابع: أنه مربوب ـ أي مملوك مدبّر ـ لله سبحانه ليس له من

(١) سورة يوسف: الآية ٢٤.
(٢) سورة يوسف: الآية ٢٣.
(٣) سورة يوسف: الآية ٣٨.

الأمر شيء، ولا يملك لنفسه نفعاً، ولا ضراً إلاّ ما شاء الله له أو أحب أن يأتي به[(١)].

٧. يوسف إمام قرآني، بما توفّر له من الصبر واليقين، وأن الامامة منصب إلهي لا يناله الظالمون، ولم يكن يوسف عليه السلام من الظالمين.

٨. يوسف والكون الجامع. العوالم ثلاثة: عالم الطبيعة، عالم المثال المنفصل، عالم العقل. والإنسان الذي يصل إلى مقام الجمع الشهودي لهذه العوالم الكون الجامع. وسيراً على هدي هذه الحقيقة يقرر القرآن الكريم أن يوسف عليه السلام كان جامعاً لتلك العوالم الثلاثة، فمن حيث ارتباطه بعالم العقل، والمجرّدات التامة، يأتي قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾[(٢)]. وأما من حيث ارتباطه بعالم المثال المنفصل فيدل عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾[(٣)]. وأما تسلطه على المادة قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[(٤)].

❁ ❁ ❁

(١) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن/ ١١، ١٠٥.
(٢) سورة يوسف: الآية ٢٤.
(٣) سورة يوسف: الآية ٣٧.
(٤) سورة يوسف: الآية ٥٥.

البحث الرابع
المفاصل الرئيسة لقصة يوسف عليه السلام
في التوراة والقرآن الكريم

إننا نجد عند قراءتنا للقصة ثلاثة مصادر لرواية القصة وهي:

١. التوراة المقدس، وهو أقدم المصادر.

٢. القرآن الكريم.

٣. التنقيبات التاريخية، وقراءة الألواح، وأوراق بردى.

ومن خلال المصادر الثلاثة نجد اختلافاً في رواية القصة، فكيف يمكن لنا حل مشكلة النقولات من هذه المصادر الثلاثة؟

لنستعرض المصدرين الأولين ـ وهما التوراة المقدس والقرآن الكريم ـ ولنقرأ الآيات في كلا المصدرين كي نحدّد الفوارق والمشتركات بين المصدرين:

تبدأ القصة القرآنية من الرؤيا التي حلم بها يوسف عليه السلام.

١. يذكر القرآن الكريم حلماً واحداً، حلم به سيدنا يوسف عليه السلام

وهو قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾[1].

بينما نجد أن التوراة تذكر حلمين:

أحدهما: يتعلق بأخوة يوسف.

الثاني: الحلم الذي ذكره القرآن الكريم.

أما الأول: «**وحلُمَ يوسُف حُلماً وأخبرَ إخوتهُ. فازدادوا أيضاً بغضاً له. فقال لهم اسمعوا هذا الحلمَ الذي حلُمتُ. فها نحن حازمونَ حُزماً في الحقلِ. وإذا حُزمتي قامت وانتصبتْ فاحتاطتْ حُزَمُكم وسجدتْ لحُزمتي. فقال له اخوتُهُ ألعلّك تملِكُ علينا مُلكاً أم تسلّطُ علينا تسلُّطاً. وازدادوا أيضاً بغضاً له من أجل أحلامِه ومن أجلِ كلامِه**»[2].

وأما الثاني: «**ثم حلُم أيضاً حلماً آخر وقصّه على إخوته. فقال إني قد حلُمتُ حلماً أيضاً وإذا الشمسُ والقمرُ وأحدَ عشر كوكباً ساجدةٌ لي. وقصّه على أبيه وعلى أخوته. فانتهرهُ أبوه وقال له ما هذا الحلمُ الذي حلُمت. هل نأتي أنا وأمك وإخوتُك لنسجُدَ لك إلى الأرضِ. فحسدهُ إخوته. وأما أبوهُ فحفظَ الأمرَ**»[3].

ونجد التطابق في المصدرين ـ القرآن الكريم والتوراة ـ من حيثية الرؤيا الثانية.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٤.
(٢) الكتاب المقدس: الاصحاح السابع والثلاثون، الآية ٥ ـ ٨.
(٣) الكتاب المقدس: الاصحاح السابع والثلاثون، الآية ٩ ـ ١١.

٢. قال تعالى في القرآن الكريم: «قَالَ يَابُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ»[1].

ونجد النص التوراتي يقول: «**فانتهرهُ أبوه وقال له ما هذا الحلمُ الذي حلُمت. هل نأتي أنا وأمك وإخوتُك لنسجُدَ لك إلى الأرضِ. فحسدهُ إخوته. وأما أبوهُ فحفظَ الأمرَ**»[2].

وهنا نوع من التطابق وذلك لو تمعنا في النص القرآني وهو قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾... نجد أنه نهره بعد قصّ الرؤيا، ولكن في النص التوراتي العبارة أشدّ.

٣. قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[3].

ونقرأ في النص التوراتي قوله تعالى: «**اطرحوه في هذه البئر التي في البريّة ولا تمدّو له يدا**»[4].

وهنا ـ أيضاً ـ نجد تطابقاً في المصدرين الكريمين.

٤. قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[5].

---

(١) سورة يوسف: الآية ٥.
(٢) الكتاب المقدس: الاصحاح السابع والثلاثون، الآية ٩ ـ ١١.
(٣) سورة يوسف: الآية ١٠.
(٤) المصدر المتقدم: الآية ٢٢.
(٥) سورة يوسف: الآية ١٨.

وأما في النص التوراتي: **«فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيساً من المعزى وغمسوا القميص في الدم. وأرسلوا القميص الملون وأحضروه إلى أبيهم»**(١).

والمعنى ـ هنا ـ متطابق.

٥. قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾(٢).

بينما في النص التوراتي: **«فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة»**(٣).

وهنا نجد نوعاً من التطابق في الشراء. والفرق بين النصين يكمن في عدم تعيين عدد الدراهم في القرآن الكريم بينما ذكر العدد في التوراة.

٦. قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾(٤).

وفي النص التوراتي: **«وأما المديانيون فباعوه في مصر لفوطيفار خصيّ فرعون رئيس الشرط»**(٥).

الفارق الوحيد بين النصين المباركين هو عدم ذكر الاسم

---

(١) الكتاب المقدس: الاصحاح السابع والثلاثون، الآيات: ٣١ و ٣٢.
(٢) سورة يوسف: الآية ٢٠.
(٣) الكتاب المقدس: الاصحاح السابع والثلاثون، الآية ٢٨.
(٤) سورة يوسف: الآية ٢١.
(٥) الكتاب المقدس: الاصحاح السابع والثلاثون، الآية ٣٦.

(فوطيفار) وهو وزير الملك الخاص في القرآن الكريم وذكره في التوراة.

٧. في النص القرآني يقول تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾[١].

وفي النص التوراتي: «**وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيّده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت اضطجع معي**»[٢].

٨. في القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[٣].

وأما في النص التوراتي: «**فامسكته بثوبه قائلة اضطجع معي. فترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج**»[٤].

والاختلاف بين النصين يبرز في قدّ القميص.

٩. في النص القرآني قال تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۞ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[٥].

وأما النص التوراتي فلم يتعرّض لهذا الأمر.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢٣.
(٢) الكتاب المقدس: الاصحاح التاسع والثلاثون، الآية ٧.
(٣) سورة يوسف: الآية ٢٥.
(٤) الكتاب المقدس: الاصحاح التاسع والثلاثون، الآية ١٢.
(٥) سورة يوسف: الآيتان ٢٦ و ٢٧.

١٠. في النص القرآني قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾[١].

بينما النص التوراتي فيه: «فأخذ يوسف سيّدُه ووضعه في بيت السجن المكان الذي كان أسرى الملك محبوسين فيه. وكان هناك في بيت السجن»[٢].

١١. في النص القرآني الكريم يقول تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾[٣].

وأما في النص التوراتي المقدس: «فسخط فرعون على خصيّيه رئيس السقاة ورئيس الخبّازين. فوضعهما في حبس بيت رئيس الشرط في بيت السجن المكان الذي كان يوسفُ محبوساً فيه»[٤].

١٢. في النص القرآني الكريم يقول تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٥].

وأما في النص التوراتي: «وحلما كلاهما حلماً في ليلةٍ واحدة كلُّ واحدٍ حلمهُ كلُّ واحدٍ بحسب تعبير حُلمِه. ساقي ملك مصر وخبّازُهُ المحبوسان في بيت السجن. فدخل يوسُفُ إليهما في الصباح

---

(١) سورة يوسف: الآية ٣٣.
(٢) الكتاب المقدس: الاصحاح التاسع والثلاثون، الآية ٢٠.
(٣) سورة يوسف: الآية ٣٦.
(٤) الكتاب المقدس: الاصحاح الأربعون، الآية ٢.
(٥) سورة يوسف: الآية ٣٦.

ونظرهما وإذا هما مغتمان. فسأل خصيّ فرعون اللذين معه في حبس بيت سيّده قائلاً لماذا وجهاكما مكمدّان اليوم. فقالا له حلُمنا حُلماً وليس من يُعبّره. فقال لهما يوسُفُ أليست لله التعابيرُ. قُصّا عليّ فقصّ رئيس السّقاة حُلمَهُ على يوسف وقال له كنتُ في حلمي وإذا كرمةٌ أمامي. وفي الكرمة ثلاثةُ قُضبانٍ. وهي إذ أفرخت طلع زهرُها وانضجت عناقيدُها عنباً. وكانت كأسُ فرعون في يدي. فأخذت العنبَ وعصرتُهُ في كأسِ فرعونَ وأعطيتُ الكأسَ في يد فرعون»[1].

وأيضاً النص التوراتي فيما يتعلق في الحلم الثاني: «فلما رأى رئيس الخبازين أنه عبّر جيداً قال ليوسُف كُنتُ أنا أيضاً في حلمي وإذا ثلاثةُ سلالٍ حوّارى على رأسي. وفي السلّ الأعلى من جميع طعام فرعونَ من صنعةِ الخباز. والطيور تأكُلُه من السلّ عن رأسي»[2].

١٣. في النص القرآني يقول تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾[3].

وأما في النص التوراتي: «فقال له يوسف هذا تعبيرُهُ. الثلاثةُ القضبان هي ثلاثةُ أيام. في ثلاثةِ أيامٍ أيضاً يرفع فرعون رأسك

(١) الكتاب المقدس: الاصحاح الأربعون: الآيات ٥ ـ ١١.
(٢) الكتاب المقدس: الاصحاح الأربعون: الآيتان ١٦ و ١٧.
(٣) سورة يوسف: الآية ٤١.

ويرُدّك إلى مقامك. فتعطي كأسَ فرعونَ في يدهِ كالعادة الأولى حين كنتَ ساقيه»(١).

وفي تفسير الحلم الثاني يردد في النص التوراتي: «**فأجاب يوسفُ وقال هذا تعبيرُهُ. الثلاثةُ السلالِ في ثلاثةُ أيام. في ثلاثةِ أيامٍ أيضاً يرفعُ فرعونَ رأسك عنك ويعلّقك على خشبةٍ وتأكلُ الطيورُ لحمك عنك»**(٢).

١٤. في النص القرآني الكريم يقول تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾(٣).

بينما هو في النص التوراتي: «**فحدث في اليوم الثالثِ يوم ميلادِ فرعون أنّه صنع وليمةً لجميع عبيده ورفع رأس رئيس السُّقاة ورأس رئيس الخبّازين بين عبيده. وردّ رئيس السّقاة إلى سقيه. فأعطى الكأس في يد فرعون. وأما رئيس الخبازين فعلّقه كما عبّر لهما يوسُف، ولكن لم يذكر رئيس السُّقاة يوسُفَ بل نسيه»**(٤).

نجد التطابق الواضح بين النصين المباركين.

١٥. في النص القرآني الكريم قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ

---

(١) الكتاب المقدس: الاصحاح الأربعون: الآيتان ١٢ و ١٣.
(٢) الكتاب المقدس: الاصحاح الأربعون: الآيتان ١٨ و ١٩.
(٣) سورة يوسف: الآية ٤٢.
(٤) الكتاب المقدس: الاصحاح الأربعون، الآيات ٢٠ ـ ٢٣.

سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾[1].

وأما في النص التوراتي فقد ورد: «وحدثَ من بعد سنتين من الزمان أن فرعون رأى حلماً. وإذا هو واقفٌ عند النهر. وهو ذا سبعُ بقراتٍ طالعةٌ من النهرِ حسنةُ المنظرِ وسمينةُ اللحمِ. فارتعت في روضةٍ. ثم هو ذا سبعُ بقراتٍ أخرى طالعةٍ وراءَها من النهر قبيحة المنظر ورقيقة اللحم. فوقفت بجانب البقراتِ الأولى على شاطئ النهر. فأكلتِ البقراتُ القبيحةُ المنظرُ والرقيقةُ اللحم البقراتِ السبعَ الحسنة المنظر والسمينة. واستيقظ فرعونُ ثم نامَ فحلُمَ ثانيةً. وهو ذا سبعُ سنابلَ طالعةٌ في ساقٍ واحدٍ سمينةٌ وحسنةٌ. ثم هو ذا سبعُ سابِلَ رقيقةٍ وملفوحةٍ بالريح الشرقية نابتةٍ وراءَها. فابتلعتِ السنابِلُ الرقيقةُ السنابِلَ السبعَ السمينةَ الممتلئة. واستيقظ فرعونُ وإذا هو حُلمٌ. وكان في الصباحِ أنّ نفسهُ انزعجت. فأرسل ودعا جميعَ سحرةِ مصر وجميع حُكمائِها وقصّ عليهم فرعونُ حُلمَهُ. فلم يكن من يُعبّرُه لفرعونَ»[2].

١٦. في النص القرآني الكريم يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ۞ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[3].

---

(١) سورة يوسف: الآية ٤٣.

(٢) الكتاب المقدس: الاصحاح الحادي والأربعون، الآيات ١ ـ ٨.

(٣) سورة يوسف: الآيات ٤٥ ـ ٤٩.

وفي النص التوراتي المقدس يقول تعالى: «ثم كلّم رئيسُ السّقاة فرعونَ قائلاً أنا اتذكّر اليوم خطاياي. افرعونَ سَخِطَ على عبديه فجعلني في حبس بيتِ رئيس الشّرط أنا ورئيس الخبّازين، فحلُمنا حُلماً في ليلةٍ واحدةٍ أنا وهو. حلُمنا كُلٌّ واحدٍ بحسب تعبيره حُلمه. وكان هناك معنا غلامٌ عبرانيٌّ عبدٌ لرئيس الشّرط فقصصنا عليه. فعبّر لنا حُلمينا. عبّر لكلّ واحد بحسبِ حُلمِه. وكما عبّر لنا هكذا حَدث. ردّني أنا إلى مقامي وأمّا هو فعلّقه.

فأرسل فرعونُ ودعا يوسُفَ. فأسرعوا به من السجن. فحلق وابدلَ ثيابَهُ ودخل على فرعون. فقال فرعونُ ليوسُف حَلُمتُ حُلماً وليس من يُعبّرُه. وأنا سمِعتُ عنكَ قولاً إنّك تسمعُ أحلاماً لتُعبّرَها. فأجابَ يوسُفُ فرعونَ قائلاً ليس لي. الله يُجيبُ بسلامةِ فرعونَ.

فقال فرعونُ ليوسُفَ إني كنتُ في حلمي واقفاً على شاطئ النهر، وهو ذا سبعُ بقراتٍ طالعةٌ من النهر سمينةَ اللحم وحسنةَ الصورة. فارتعت في روضةٍ. ثم هوذا سبعُ بقراتٍ أخرى طالعةٌ وراءَها مهزولة وقبيحةَ الصورة جداً ورقيقة اللحم. لم انظر في كلّ أرض مصر مثلها في القباحة. فأكلت البقراتُ الرقيقةُ والقبيحةُ البقراتِ السبع الأولى السمينة. فدخلت أحوامها ولم يعلم أنها دخلت في أجوافِها. فكان منظرُها قبيحاً كما في الأول. واستيقظتُ. ثم رأيت في حلمي وهو ذا سبعُ سنابِل طالعةٌ في ساقٍ واحدٍ ممتلئةٌ وحسنةٌ. ثم هو ذا سبعُ سنابِلَ يابسةً رقيقةً ملفوحةً بالريح الشرقيّة نابتةٌ وراءَها. فابتلعتِ السنابِلُ الرقيقةُ السنابلَ السبعَ الحسنة. فقلتُ للسحرة ولم يكن من

يُخبرُني. فقال يوسُفُ لفرعونَ حُلمُ فرعون واحدةٌ. قد أخبر الله فرعونَ بما هو صانعٌ. البقراتُ السبعُ الحسنةُ هي سبعُ سنين. والسنابِلُ السبعُ الحسنةُ هي سبعُ سنين. هو حلمٌ واحدٌ. والبقراتُ السبعُ الرقيقةُ القبيحة التي طلعت وراءَها هي سبعُ سنين. والسنابِلُ السبعُ الفارغةُ الملفوحةُ بالريح الشرقية تكونُ سبعَ سنين جوعاً. هو الأمرُ الذي كلّمتُ به فرعونَ. قد أظهر اللهُ لفرعونَ ما هو صانعٌ. هو ذا سبعُ سنين قادمةٌ شبعاً عظيماً في كلِّ أرضِ مصر. ثم تقومُ بعدَها سبعُ سنينَ جوعاً. فيُنسى كلُّ الشِبعِ في أرض مصرَ ويُتلِفُ الجوعُ الأرض. ولا يُعرَفُ الشبعُ في الأرض من أجلِ ذلك الجوعِ بعدَهُ. لأنّه يكونُ شديداً جداً. وأما عن تكرارِ الحُلم على فرعونَ مرّتين فلأنّ الأمر مقرّرٌ من قِبَلِ الله واللهُ مسرعٌ ليصنعهُ.

فالآن لينظر فرعونُ رجلاً بصيراً وحكيماً ويجعلْهُ على أرضِ مصرَ. يفعل فرعونُ فيوكّل نُظّاراً على الأرض ويأخُذ خُمسَ غلّةِ أرض مصرَ في سبعِ سني الشبع. فيجمعون جميعَ طعامِ هذه السنين الجيدة القادمة ويخزُنون قمحاً تحتَ يدِ فرعونَ طعاماً في المدنِ ويحفظونَهُ. فيكونُ الطعامُ ذخيرةً للأرضِ لسبعِ سني الجوع التي تكونُ في أرض مصر. فلا تنقرضُ الأرضُ بالجوعِ»[1].

١٧. في النص القرآني الكريم ورد قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّتِي قَطَّعْنَ

(١) الكتاب المقدس: الاصحاح الحادي والأربعون، الآيات ٩ ـ ٣٦.

أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ * وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

بينما النص التوراتي المقدس لم يذكر هذه الآيات المباركات التي وردت في القرآن الكريم وإنما انتقل مباشرة إلى تفسير الحلم.

١٨. في النص القرآني الكريم يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ * وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾(٢).

وفي النص التوراتي المقدس يقول تعالى: **«فحسُن الكلام في عيني فرعونَ وفي عيون جميع عبيده. فقال فرعونُ لعبيده هل نجدُ مثل هذا رجلاً فيه روحُ الله. ثم قال فرعونُ ليوسفَ بعدما أعلمك الله كل هذا ليس بصيرٌ وحكيمٌ مثلك. أنت تكونُ على بيتي وعلى فمِكَ يُقبّلُ جميع شعبي. إلاّ إنّ الكرسيّ أكونُ فيه أعظَم منكَ. ثم قال فرعونُ ليوسُف انظر. قد جعلتُكَ على كلِّ أرضِ مصر. وخلعَ فرعونُ**

---

(١) سورة يوسف: الآيات ٥٠ ـ ٥٣.

(٢) سورة يوسف: الآيات ٥٤ ـ ٥٧.

خاتِمَهُ من يده وجعلَهُ في يد يوسُفَ. وألبسهُ ثيابَ بوصٍ ووضع طوقَ ذهبٍ في عنُقهِ. وأركبَهُ في مركبته الثانية ونادوا أمامهُ أركعوا. وجعله على كل أرض مصر. وقال فرعونُ ليوسف أنا فرعونُ. فبدونِكَ لا يرفعُ إنسانٌ يدهُ ولا رِجلَهُ في كلِّ أرضِ مصر»(١).

١٩. في النص القرآني الكريم قال تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾(٢).

وورد في النص التوراتي: «وعرفَ يوسُفُ اخوتَهُ، وأما هم فلم يعرفوه»(٣).

٢٠. هناك نص ورد في التوراة، لم يرد ذكره في القرآن الكريم وهو: «فتذكّر يوسُف الأحلامَ التي حلُمَ عنهم وقال لهم جواسيسُ أنتُم. لتروا عورةَ الأرض جئتم. فقالوا له لا يا سيّدي. بل عبيدُك جاؤوا ليشتروا طعاماً. نحن جميعُنا بنو رجلٍ واحدٍ. نحن أمناءُ. ليس عبيدُك جواسيس. فقال لهم كلاّ بل لتروا عورةَ الأرض جئتم. فقالوا عبيدُك اثنا عشر أخاً. نحن بنو رجلٍ واحد في أرض كنعان. وهوذا الصغيرُ عند أبينا اليوم والواحدُ مفقودٌ»(٤).

٢١. في النص القرآني الكريم يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ

---

(١) الكتاب المقدس: الاصحاح الحادي والأربعون، الآيات ٣٧ ـ ٤٤.
(٢) سورة يوسف: الآية ٥٨.
(٣) الكتاب المقدس: الاصحاح الثاني والأربعون، الآية ٨.
(٤) الكتاب المقدس: الاصحاح الثاني والأربعون، الآيات ٩ ـ ١٣.

ٱلْمُنزِلِينَ * فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾(١).

وفي النص التوراتي المقدس يقول تعالى: «فقالوا عبيدُك اثنا عشر أخاً. نحن بنو رجلٍ واحد في أرض كنعان. وهوذا الصغيرُ عند أبينا اليوم والواحدُ مفقودٌ. فقال لهم يوسُفُ ذلك ما كلّمتكم به قائلاً جواسيسُ أنتم. بهذا تُمتحَنونَ. وحياةِ فرعونَ لا تخرُجون من هنا إلاّ بمجيء أخيكُم الصغير إلى هنا. أرسِلوا منكم واحداً ليجيء بأخيكم وأنتم تُحبسون. فيُمتحَن كلامُكُم هل عندَكم صدقٌ. وإلاّ فو حياة فرعونَ إنّكم لجواسيسُ. فجمعهم إلى حبسٍ ثلاثةَ أيامٍ.

ثم قال لهم يوسُفُ في اليوم الثالث افعلوا هذا وأحيوا، أنا خائفُ الله. إن كُنتم أمناءَ فليحبِس منكم في بيت حبسِكُم وانطلِقوا أنتم وخذوا قمحاً لمجاعةِ بيوتِكم. واحضِروا أخاكم الصغيرَ إليّ. فيتحقق كلامُكُم ولا تموتوا. ففعلوا هكذا»(٢).

٢٢. في النص القرآني الكريم قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٣).

أما في النص التوراتي: «ثم أمر يوسفُ أن تُملأ أوعيتُهُم قمحاً وتُردّ فضةُ كُلّ واحدٍ إلى عدله وأن يُعطوا زاداً للطريق. ففُعِل لهم

---

(١) سورة يوسف: الآيات ٥٩ ـ ٦١.
(٢) الكتاب المقدس: الاصحاح الثاني والأربعون، الآيات ١٣ ـ ٢٠.
(٣) سورة يوسف: الآية ٦٢.

هكذا. فحملوا قمحهم على حميرِهم ومضوا من هناك. فلما فتح أحدُهُم عِدْلَهُ ليُعطي عليقاً لحمارِهِ في المنزل رأت فضّتَهُ وإذا هي في فمِ عدله. فقال لإخوته رُدّتْ فضّتي وها هي في عدلي. فطارت قلوبُهُم وارتعدوا بعضُهم في بعضٍ قائلين ما هذا الذي صنَعهُ الله بنا»[1].

٢٣. في النص القرآني الكريم يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ * قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ * وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

وأما في النص التوراتي المقدس فيقول تعالى: **«فجاؤوا إلى يعقوبَ أبيهم إلى أرض كنعانَ وأخبروهُ بكلِّ ما أصابهم قائلين. تكلّم**

---

(١) الكتاب المقدس: الاصحاح الثاني والأربعون، الآيات ٢٥ ـ ٢٨.
(٢) سورة يوسف: الآية ٦٣ ـ ٦٨.

معنا الرجلُ سيدُّ الأرضِ بجفاءٍ وحسِبنا جواسيس الأرض. فقُلنا له نحنُ أمناءُ. لسنا جواسيسَ. نحن اثنا عشر أخاً بنو أبينا. الواحدُ مفقودٌ والصغيرُ اليوم عند أبينا في أرض كنعان. فقال لنا الرجلُ سيدُّ الأرضِ بهذا أعرفُ أنّكم أمناء. دعوا أخاً واحداً منكُم عندي وخذوا لمجاعة بيوتِكم وانطلقوا. واحضِروا أخاكُم الصغير إليّ. فأعرفَ أنّكم لستُم جواسيسَ بل أنّكم أمناءُ. فاعطيكم أخاكُم وتتجرون في الأرض. وإذ كانوا يُفرغون عدالهم إذا صُرّةُ فضةٍ كلّ واحدٍ في عدلِه. فلما رأوا صُرر فضّتِهم هم وأبوهم خافوا.

فقال لهم يعقوبُ اعدمتموني الأولادَ. يوسُفُ مفقودٌ وشِمعونُ مفقودٌ وبنيامينُ تأخذونهُ. صار كلُّ هذا عليّ. وكلّم رأوبين أباهُ قائلاً اقتُل ابني إن لم أجيء به إليك. سلّمهُ بيدي وأنا أرُدُّهُ إليك. فقال لا ينزلُ ابني معكُم. لأنّ أخاهُ قد ماتَ وهو وحدَهُ باقٍ. فإن أصابته أذيةٌ في الطريق التي تذهبون فيها تُنزِلون شيبتي بحُزنٍ إلى الهاوية»[1].

وقوله تعالى في النص التوراتي المقدس: «أو كان الجوعُ شديداً في الأرض. وحدث لمّا فرغوا من أكل القمح الذي جاءوا به من مصر أنّ أباهم قال لهم ارجِعوا اشتروا لنا قليلاً من الطعام. فكلّمه يهوذا قائلاً إنّ الرجل قد أشهد علينا قائلاً لا ترون وجهي بدون أن يكون أخوكُم معكم. إن كُنتَ تُرسِلُ أخانا معنا ننزِلُ ونشتري لك طعاماً. ولكن إن كنتَ لا تُرسِلُهُ لا ننزِلُ. لأن الرجلَ قال لنا لا ترون وجهي بدون أن يكون أخوكم معكم.

---

(١) الكتاب المقدس: الاصحاح الثاني والأربعون، الآيات ٢٩ ـ ٣٨.

فقال إسرائيلُ لماذا اسأتُم إليّ حتى أخبرتُم الرجلَ أنّ لكم أخاً أيضاً. فقالوا إنّ الرجل قد سأل عنّا وعن عشيرتنا قائلاً هل أبوكُم حي بعدُ. هل لكُم أخٌ. فأخبرناهُ بحسبِ هذا الكلامِ. هل كنا نعلمُ أنه يقولُ أنزِلوا بأخيكُم.

وقال يهوذا لإسرائيلَ أبيه ارسِل الغلامَ معي لنقومَ ونذهبَ ونحيا ولا نموتَ نحن وأنتَ وأولادُنا جميعاً. أنا أضمنُهُ. من يدي تطلبُهُ. إن لم أجيء به إليكَ وأوقِفهُ قُدّامَك أصِر مذنباً إليكَ كُلَّ الأيامِ. لأنّنا لو لم نتوانَ لكُنا قد رجَعنا الآن مرتين.

فقال لهم إسرائيلُ أبوهُم إن كان هكذا فافعلوا هذا. خُذوا من أفخرِ جنى الأرضِ في أوعيتِكُم وأنزِلوا للرجلِ هديةً. قليلاً من البلسان وقليلاً من العسلِ وكثيراً ولاذَناً وفستقاً ولوزاً. وخذوا فضةً أخرى في أياديكم. والفضةُ المردودَةُ في أفواهِ عدالِكم ردّوها في أياديكم. لعلهُ كان سهواً. وخذوا أخاكم وقوموا ارجِعوا إلى الرجلِ. واللهُ القديرُ يُعطيكُم رحمةً أمامَ الرّجلِ حتى يُطلِقَ لكم أخاكمُ الآخر وبنيامينَ. وأنا إذا عدِمتُ الأولادَ عدِمتُهُم.

فأخذَ الرجالُ هذه الهديةَ وأخذوا ضِعفَ الفضةِ في أياديهم وبنيامين وقاموا ونزلوا إلى مصرَ ووقفوا أمامَ يوسُفَ. فلمّا رأى يوسُفُ بنيامين معهم قال للذي على بيته ادخِل الرجال إلى البيتِ واذبح ذبيحةً وهيء. لأن الرجال يأكلون معي عند الظهر. ففعل الرجالُ كما قال يوسُفُ. وادخل الرجالُ الرجالَ إلى بيت يوسُفَ. فخافَ الرجالُ إذ أُدخِلوا إلى بيت يوسُف. وقالوا لسبب الفضة التي

رَجَعت أولاً في عدالِنا نحنُ قد أُدخلنا ليهجُم علينا ويقع بنا ويأخُذَنا عبيداً وحميرنا. فتقدموا إلى الرجلِ الذي على بيتِ يوسُفَ وكلّموهُ في بابِ البيت. وقالوا استمع يا سيدي. إننا قد أنزلنا أولاً لنشتري طعاماً. وكان لمّا أتينا إلى المنزلِ أننا فتحنا عدالَنا وإذا فضّةُ كلِّ واحدٍ في فم عدلِه فضّتُنا بوزِنها. فقد رددناها في أيادينا. وأنزلنا فضةً أخرى في أيادينا لنشتري طعاماً. لا نعلمُ من وضعَ فضّتنا في عدالنا.

فقال سلامٌ لكم. لا تخافوا. إلهُكُم أعطاكُم كنزاً في عدالِكُم. فضّتُكُم وأعطاهم ماءً ليغسِلوا أرجُلَهم وأعطى عليقاً لحميرِهم. وهيأوا الهدية إلى أن يجيء يوسُفُ عندَ الظهرِ، لأنّهم سمِعوا أنهم هناكَ يأكلون طعاماً.

فلمّا جاء يوسُفُ إلى البيت أحضروا إليه الهدية التي في أياديهم إلى البيت وسجدوا إلى الأرض. فسأل عن سلامتِهم وقال اسالمٌ ابوكم الشيخُ الذي قلتُم عنه. أحيٌّ هو بعدُ. فقالوا عبدُك أبونا سالمٌ. هو حيٌّ بعدُ. وخرجوا وسجدوا»[١].

٢٤. وفي النص القرآني الكريم يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٢].

وفي النص التوراتي: «فرفع عينيه ونظر بنيامين أخاهُ ابنَ أمّهِ

(١) الكتاب المقدس: الاصحاح الثالث والأربعون، الآيات ١ ـ ٢٨.
(٢) سورة يوسف: الآية ٦٩.

وقال أهذا أخوكُم الصغيرُ الذي قلتُم لي عنهُ. ثم قال اللهُ يُنعِمُ عليك يا ابني. واستعجل يوسُفُ لأن أحشاءَه حنّت إلى أخيه وطلب مكاناً ليبكي. فدخل المخدعَ وبكى هناك.

ثم غسل وجههُ وخرج وتجلّد. وقال قدّموا طعاماً. فقدّموا له وحده ولهم وحدهم وللمصريين الآكلين عنده وحدهم. لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين لأنّه رجسٌ عند المصريين. فجلسوا قدّامه البِكرُ بحسب بكوريته والصغيرُ بحسب صغره. فبُهِتَ الرجالُ بعضُهم إلى بعضٍ. ورفع حصصاً من قدّامه إليهم. فكانت حصّةُ أكثرَ من حصصِ جميعِهم خمسةَ أضعافٍ. وشرِبوا ورووا معه»[١].

٢٥. في النص القرآني الكريم يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾[٢].

وأما في النص التوراتي فيرد: «ثم أمر الذي على بيته قائلاً املأ عدالَ الرّجال طعاماً حسب ما يُطيقون حملهُ وضع فضّة كلّ واحدٍ في فمِ عدلِه. وطاسي طاسَ الفضّةِ تضعُ في فمِ عدلِ الصغيرِ وثمنَ قمحِهِ. ففعل بحسبِ كلامِ يوسُفَ الذي تكلّم به»[٣].

٢٦. في النص القرآني الكريم يقول تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم

---

(١) الكتاب المقدس: الاصحاح الثالث والأربعون، الآيات ٢٩ ـ ٣٤.
(٢) سورة يوسف: الآية ٧٠.
(٣) الكتاب المقدس: الاصحاح الرابع والأربعون: الآيتان ١ ـ ٢.

مَاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾(١).

وأما في النص التوراتي فقوله: «فلما أضاءَ الصّبحُ انصرفَ الرجالُ هم وحميرُهم. ولما كانوا قد خرجوا من المدينة ولم يبتعدوا قال يوسُف للذي على بيته قُم اسعَ وراءَ الرجالِ ومتى أدركتهم فقُل لهم لماذا جازيتُم شراً عِوَضاً عن خيرٍ. أليس هذا هو الذي يشربُ سيّدي فيه. وهو يتفاءَلُ به. أسأتُم في ما صنعتُم»(٢).

٢٧. قال تعالى في النص القرآني الكريم: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾(٣).

وفي النص التوراتي المقدس يقول تعالى: «فأدركهم وقال لهم هذا الكلام. فقالوا له لماذا يتكلم سيدي مثل هذا الكلام. حاشا لعبيدِك أن يفعلوا مثل هذا الأمر. هو ذا الفضةُ التي وجدنا في أفواهِ عدالِنا رددناها إليك من أرض كنعانَ. فكيف نسرِقُ من بيتِ سيّدك فضةً أو ذهباً. الذي يوجدُ معه من عبيدكَ يموتُ. ونحن أيضاً نكونُ

---

(١) سورة يوسف: الآيات ٧٠ ـ ٧٤.
(٢) الكتاب المقدس: الاصحاح الرابع والأربعون، الآيات ٣ ـ ٥.
(٣) سورة يوسف: الآيتان ٧٥ ـ ٧٦.

عبيداً لسيدي. فقال نعم الآن يحسب كلامكم هكذا يكون. الذي يوجدُ معه يكونُ لي عبداً. وأما انتم فتكونون أبرياءَ. فاستعجلوا وأنزلوا كلّ واحدٍ عدلَهُ إلى الأرض وفتحوا كلُّ واحدٍ عدلَهُ. ففتشَ مبتدِئاً من الكبير حتى انتهى إلى الصغير. فوُجِد الطاسُ في عدلِ بنيامين. فمزّقوا ثيابهم وحمّل كل واحدٍ على حمارِهِ ورجعوا إلى المدينة»[1].

٢٨. وينفرد النص القرآني الكريم بقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[2].

بينما النص التوراتي خالٍ من هذا المقطع.

٢٩. ويقول تعالى في النص القرآني الكريم: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[3].

وأما في النص التوراتي المقدس فيقول تعالى: «ثم تقدم إليه يهوذا وقال استمع يا سيدي. ليتكلم عبدُك كلمةً في أُذني سيدي. ولا يحمَ غضبُك على عبدِك. لأنّك مثلُ فرعونَ. سيدي سأل عبيدهُ قائلاً هل لكم أبٌ أو أخٌ. فقلنا لسيدي لنا أبٌ شيخٌ وابنُ شيخوخةٍ صغيرٌ ماتَ أخوهُ وبقي هو وحدَهُ لأمّه وأبوهُ يُحبُّه. فقلتَ لعبيدك انزلوا به اليّ فاجعل نظري عليه. فقلنا لسيدي لا يقدِرُ الغُلامُ أن يترُكَ أباهُ.

---

(١) الكتاب المقدس: الاصحاح الرابع والأربعون، الآيات ٦ ـ ١٣.
(٢) سورة يوسف: الآية ٧٧.
(٣) سورة يوسف: الآية ٧٨.

وإن تركَ أباهُ يموتُ. فقُلْتَ لعبيدِكَ إن لم ينزِل أخوكُمُ الصغيرُ معكُم لا تعودوا تنظُرون وجهي. فكان لمّا صعِدنا إلى عبدِك أبي أننا أخبرناهُ بكلامِ سيدي. ثمّ قال أبونا ارجِعوا اشتروا لنا قليلاً من الطعام. فقُلنا لا نقدِرُ أن ننزلَ. وأنما إذا كان أخونا الصغيرُ معنا ننزِلُ. لأننا لا نقدِرُ أن ننظرَ وجه الرجل وأخونا الصغيرُ ليس معنا. فقال لنا عبدَك أبي انتم تعلمون أن امرأتي ولدت لي اثنين. فخرج الواحدُ من عندي وقُلتُ إنما هو قد افترِسَ افتراساً. ولم أنظُرهُ إلى الآن ز فإذا أخذتم هذا أيضاً من أمام وجهي وأصابته أذيةٌ تُنزِلون شيبتي بشرٍّ إلى الهاوية. فالآن متى جِئتُ إلى عبدِك أبي والغلامُ ليس معنا ونفسُهُ مرتبطةٌ بنفسِه. يكونُ متى رأى أنّ الغلامَ مفقودٌ أنه يموتُ. فيُنزِلُ عبيدُك شيبةَ عبدِك أبينا بحُزنٍ إلى الهاوية. لأن عبدَك ضَمِنَ الغلامَ لأبي قائلاً إن لم أجيء به إليكَ أصر مذنباً إلى أبي كلّ الأيام. فالآن ليمكُثْ عبدُكَ عِوَضاً عن الغلامِ عبداً لسيدي ويَصعَدِ الغلامُ مع إخوتِهِ. لأنّي كيف أصعَدُ إلى أبي والغلامُ ليسَ معي. لئلا أنظُر الشرّ الذي يُصيبُ أبي»[1].

٣٠. قال تعالى في النص القرآني الكريم: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[2].

وفي النص التوراتي يقول تعالى: «فقال حاشا لي أن أفعل هذا.

---

(١) الكتاب المقدس: الاصحاح الرابع والأربعون، الآيات ١٨ ـ ٣٤.
(٢) سورة يوسف: الآية ٧٩.

الرجلُ الذي وُجِدَ الطاسُ في يده هو يكونُ لي عبداً. وأما انتم فاصعدوا بسلامٍ إلى أبيكم»(١).

٣١. قال تعالى في النص القرآني الكريم: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ * قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾(٢).

ويقول تعالى في النص التوراتي المقدس: «فلم يستطع يوسُفُ أن يضبط نفسه لدى جميعِ الواقفين عندَهُ فصرخَ أخرِجوا كلّ انسانٍ عني. فلم يقف أحدٌ عندهُ حين عرّف يوسُفُ أخوته بنفسه. فأطلق صوته بالبكاءِ. فسمع المصريون وسمِع بيتُ فرعون. وقال يوسُفُ لإخوتِه أنا يوسُفُ. أحيٌّ أبي بعدُ. فلم يستطع إخوتُهُ أن يجيبوهُ لأنّهم ارتاعوا منه.

فقال يوسُفُ تقدّموا إليّ. فقال أنا يوسُفُ أخوكُم الذي بعتموه إلى مصر. والآن لا تتأسفوا ولا تغتاظوا لأنّكم بعتموني إلى هنا. لأنه لاستبقاء حياةٍ أرسلني اللهُ قدّامكم. لأن للجوعِ في الأرض الآن سنتين. وخمسُ سنين أيضاً لا تكونُ فيها فلاحةٌ ولا حِصادٌ. فقد

---

(١) الكتاب المقدس: الاصحاح الرابع والأربعون، الآية ١٧.
(٢) سورة يوسف: الآيات ٨٩ ـ ٩٢.

أرسلني الله قُدّامكم ليجعل لكم بقيةً في الأرض وليستبقي لكم نجاةً عظيمةً»[١].

٣٢. قال تعالى في النص القرآني الكريم: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۞ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۞ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ۞ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

ولكن التوراة المقدسة لم يرد فيها هذا النص بل ورد فيه قوله تعالى: **«فصعِدوا من مصر وجاءوا إلى أرضِ كنعان إلى يعقوب أبيهم. وأخبروه قائلين يوسُفُ حيٌّ بعدُ. وهو متسلّطٌ على كلِّ أرضِ مصر. فجمدَ قلبُهُ لأنّه لم يُصدّقْهم. ثم كلّموهُ بكل كلامِ يوسُف الذي كلّمهم به. وأبصر العجلاتِ التي أرسلها يوسُفُ لتحملِهُ. فعاشت روحُ يعقوبَ أبيهم. فقال إسرائيلُ كفى. يوسُفُ ابني حيٌّ بعدُ. اذهب وأراهُ قبلَ أن أموت»**[٣].

وأيضاً في النص التوراتي المقدس يقول تعالى: **«أنا أَنزِلُ معكَ إلى مِصرَ وأنا أُصْعِدُكَ أيضاً. ويضعُ يوسُفُ يدَهُ على عينيكَ»**[٤].

٣٣. قال تعالى في النص القرآني الكريم: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى

(١) الكتاب المقدس: الاصحاح الخامس والأربعون: الآيات ١ ـ ٨.
(٢) سورة يوسف: الآيات ٩٣ ـ ٩٦.
(٣) الكتاب المقدس: الاصحاح الخامس والأربعون: الآيات ٢٥ ـ ٢٨.
(٤) الكتاب المقدس: الاصحاح السادس والأربعون: الآية ٤.

ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

من جميع ما تقدم:

نستنتج أن في قصة يوسف عليه السلام تشابهاً كبيراً على مستوى أكثر من تسعين بالمئة بين النص القرآني الكريم والنص التوراتي المقدس. لكن ذكرنا ـ فيما سلف من القول ـ أن في غالب القصص القرآنية هناك ثلاثة مصادر:

١. المصدر التوراتي.

٢. المصدر القرآني.

٣. المصدر التنقيبي.

ومما لا شك فيه أن هناك اختلافاً كبيراً بين المصدر التنقيبي والمصدر القرآني في أكثر من الإختلاف بين المصدر القرآني والمصدر التوراتي. وبما أن الحركة المعاصرة مبنية على قضايا مادية ومرئية ومحسوسة، وعلى معادلات، فهناك مناقشة في الإختلاف الموجود في المصدر القرآني وبين المصدر التنقيبي، فاعتمدوا ورجّحوا المصدر والرواية التنقيبية على المصدر والرواية القرآنية، لأن الرواية التنقيبية ـ كما قلنا ـ تعتمد على عناصر محسوسة تنقيبات

(١) سورة يوسف: الآية ١٠٠.

وألواح طينية قد كتبت فيها القصة، أو ألواح بردي، التي استكشفت في مصر في الأمور الراجعة إلى تاريخ مصر، فرجّحوا المصدر التنقيبي على المصدر القرآني.

ولكن حتى بحسب الموازين العلمية لا يمكن إثبات الترجيح، والسبب في ذلك: أن الرواية التي تكتب في ضوء الاستكشافات القديمة، هي رواية ظنية. وهناك كثير من الروايات التي كتبت حول الآثار التاريخية في اليونان، أو في بابل، وقد ثبت عدم صحّتها في التنقيبات التي تحقّقت بعد ذلك، فكأن المجموعة التي نقّبت في منطقة كانت فيها حضارة من طريق التنقيب الأول، كتبت قصة الحضارة بشكل معيّن، وجاء التنقيب الثاني فأبطل الرواية الأولى، وهكذا جاء التنقيب الثالث، فأبطل الرواية الثانية. فحينئذٍ ما يستكشف أو يكتب من طريق التنقيب ليس دليلاً علمياً كالمعادلات الرياضية التي لا تقبل التشكيك بل هي استنتاجات بشرية مبنية على أصول ظنيّة. فلو جردنا القرآن من قداسته، وأنه كتاب سماوي منزل من قبل الله تبارك وتعالى وأردنا أن نتعامل معه على مستوى كتاب ينقل رواية معيّنة، فلا دليل على ترجيح الرواية التنقيبية على الرواية القرآنية ـ حتى لو جردنا القرآن من قداسته ـ، وذلك لأن الرواية والقراءة التنقيبية لم تُبتن على مقدّمات علمية لا يمكن المناقشة فيها كالمعادلات الرياضية، والفيزيائية، وإنما هي استنتاجات من أصول ظنية.

لا يقال: أن بعض القصص التي كتبت كانت اعتماداً على ألواح

طينية، أو أوراق البردي. فماذا تقولون بالقصة المنقولة من الألواح الطينية، أو من ألواح البردي، أو الخشبية أو ما شابه ذلك؟ فهذه ليست مبنية على أسس وأصول ظنية.

وفي الجواب نقول: الكلام فيمن كتب هذه الألواح، فإنها شخصية مجهولة سواء كانت مكتوبة في أوراق البردي، أو ألواح طينية، أو ألواح خشبية، فهي مجهولة، ونحن ـ في صحة الرواية ـ لابد لنا من التعرف على شخصية الراوي، وثبات وثاقته، والشخصية ـ هنا ـ مجهولة، فتأتي فيها المناقشة السابقة.

فحينئذٍ: حتى لو جردنا القرآن من قداسته ـ ولا يمكن تجريده ـ فإننا عندما نتكلم مع مسيحي، أو يهودي، أو عالم من علماء الآثار يقول: أنا لا اعترف بقداسة القرآن حتى اقتنع به ككتاب صادق بكل ما فيه. أنا اعتمد على القصة القرآنية، فأقايسها مع القصة التي كتبت من طريق اكتشاف الآثار، أو من طريق الاعتماد على أوراق البردي، أو الألواح الطينية.

نقول: إن هذه القراءة ظنية، فمن الذي يثبت أن تلك الظنية أقوى من هذه الظنية، مضافاً على ثبوت الخطأ في القصص التي كتبت من طريق التنقيب والاعتماد على ما تركه الإنسان القديم، لأن هذه القصص كتبت ثلاث مرات وفي كل مرة القصة الثانية تنقض القصة الأولى. فلا يمكن الاعتماد عليها.

ولكن تبقى مشكلة وهي:

بعد طرح (الرواية والمصدر التنقيبي) تبقى هناك روايتان

ومصدران للقصة وهما المصدر القرآني الكريم والمصدر التوراتي المقدس. ففي موارد الخلاف، لأي مصدر يكون الترجيح؟

في الجواب نقول: إن التوراة المقدس في تاريخه الطويل مرّ بثلاث أحداث مهمة عدمت فيه جميع نسخه ولم يثبت لنا أن هذه النسخة هي النسخة التي جاء بها موسى عليه السلام فلابد من تثبيت أن هذه النسخة التي بين أيدينا هي امتداد لتلك النسخة الأصلية التي جاء بها موسى عليه السلام وبعد ذلك يحقّ لنا الكلام حول ترجيح أحد المصدرين على الآخر.



البحث الخامس
الشكل الفني لقصة يوسف ﷺ

١. لقد بدأت قصة يوسف ـ منذ البداية ـ اعتماداً على مادة حُلمية. والحُلم ـ كما هو واضح ـ يشكّل في القصة ـ مادة فنية غنية في التقنية القصصية. وهي تشير إلى عالمين واقعي ومنامي، والبنية القصصية الفنية تقوم على تطور الحلم إلى حقيقة. فالقصة تنطوي على مجموعة أحلام: حُلم يوسف ﷺ، حُلم صاحبي يوسف ﷺ في السجن، حُلم الملك.

فالقصة ـ أساساً ـ قد اعتمدت على مادة (الحلم) من حيث تطور أحداثها، ومواقفها على حُكم بطلها الرئيسي يوسف ﷺ. والقصة اعتمدت على أكثر من حلم، وتجاوزت الحلم إلى فعّالية تفسير الأحلام، وهذا يعني أن عنصر الأحلام هو العصب الفني الذي قام عليه شكل القصة.

٢. من حيث البناء الذي تتحرّك الأحداث والمواقف من خلاله، فإن الحدث يأخذ تسلسله في الزمن الموضوعي. أي: تسير القصة حادثاً بحادث دون أن تقطع الأحداث وفقاً لزمنها النفسي، حتى تكتمل الأحداث لتحقيق الهدف النهائي للقصة.

وأما البناء الداخلي للحدث فإن القصة تسير وفق معمارية بالغة الجمال من حيث تداخل الأحداث وصلة بعضها بالآخر، ثم نموّها عبر خطوط تتوازى وتفترق حتى تصبّ في نهر واحدٍ في نهاية المطاف.

٣. إن كلاً من أخوة يوسف ﷺ (باعتبارهم شخصاً قصصياً واحداً من حيث الموقف) وامرأة العزيز يجسّدان بناء هندسياً قائماً على الموازنة الفنية في حركة القصة. وهاتان الشخصيتان ـ في الوقت نفسه ـ تتحركان من مواقع متفاوتة، وتفرزان دلالات متفاوتة أيضاً. فالفنّ ـ هنا ـ يحقّق عنصر التضاد من خلال التماثل، والتماثل من خلال التضادّ:

ثمة مؤامرتان: إحداهما تنطلق من دافع الحسد، والأخرى من الدافع الجنسي، وهما متضادتان غير أنهما تقتادان الشخصيتين إلى سلوك مماثل هو: التآمر.

الأولى يمثّلها رجال، والثانية تمثّلها امرأة، وهما متضادتان، لكنهما تتماثلان في تخطيط السوء.

الأولى يمثّلها أخوة أقارب، والثانية يمثّلها من الأباعد امرأة غريبة. وهما متضادتان.

الأولى حادثة الإلقاء في البئر، والثانية حادثة الإلقاء في السجن، وهما متماثلان.

الأولى محاولة تخلّص من يوسف، والثانية محاولة تعلّق بيوسف. وهما متضادتان.

إذن: كم هو جميل وممتع مثل هذا البناء الهندسي لنمطين من أبطال القصة الثانويين، فيما يقدم الهيكل على عنصر التضاد، والتماثل، والوحدة بينهما.

٤. عناصر المفاجأة والتشويق، وحركة القصة وتموجاتها، وبناؤها الزمني ونموّ الأحداث من خلاله، كل ذلك جاء بصورة تثير الدهشة مما يؤكد الإعجاز الفني للقرآن الكريم.



البحث السادس
الشخصيات والأحداث البارزة
في قصة يوسف عليه السلام

إن أهم وأبرز شخصيات قصّة يوسف كما وردت في سورة يوسف من القرآن الكريم هي:

١ ـ يوسف عليه السلام:

وهو نبي من أنبياء الله سبحانه وتعالى ولابد من أن تكون فيه خصائص النبوة وأنه معصوم، وعالم، وأنه يحمل رسالة إلهية من دون شك، وهي رسالة مباشرة، أو غير مباشرة، وهي رسالة نوح عليه السلام أو إبراهيم عليه السلام. وقد منحه الله سبحانه الكثير من الخصائص والقابليات. فعندما نطالع قصة سيدنا يوسف عليه السلام نجد أن هناك إنساناً أُعطي جميع الإمكانات الدنيوية سواء على المستوى الفردي أو الإجتماعي من المال والجمال والمنصب، وتهيّأت له بين يديه الأسباب التي تدفع نحو الإنحراف الفردي أو الإجتماعي. ولكن مع كل ذلك بقي عبداً مخلصاً لربّه عزّ وجل وخرج من الإمتحان الصعب صابراً ظافراً برضا الله تعالى. فهو عليه السلام من

المجتبين ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾[١]. وهو ممّن عُلِّم تأويل الأحاديث: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾[٢]، وأي نعمة أشرف من هذه النعمة التي تفتح أمام العبد أبواب ملكوت السماوات والأرض ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾[٣]. استناداً إلى معطيات، معنى التأويل الذي هو الوقوف على حقائق الأمور والإطلاع على بواطنها. فيوسف عليه السلام من الراسخين في العلم لأنه يعلم تأويل الأحاديث والوقائع. وهو عليه السلام العالم بالغيب والمطلع على بواطن الأمور: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[٤]. وهو عليه السلام عالم وحكيم بنصّ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[٥]. وهو عليه السلام من المخلصين: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[٦].

يقول السيد الطباطبائي في تفسيره[٧]: إن الغرض من سورة يوسف عليه السلام وقصته، هو بيان ولاية الله لعبده الذي أخلص له إيمانه إخلاصاً، وامتلأ بمحبته، لا يبتغي له بدلاً، ولم يلو إلى غيره تعالى من شيء، وأن الله تعالى يتولى أمره، فيوّليه ويربّيه أحسن تربية

---

(١) سورة يوسف: الآية ٦.
(٢) سورة يوسف: الآية ٦.
(٣) سورة يوسف: الآية ٦.
(٤) سورة الجن: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.
(٥) سورة يوسف: الآية ٢٢.
(٦) سورة يوسف: الآية ٢٤.
(٧) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن/ ١١، ٦٣.

فيورده مورد القرب، ويسقيه فيرويه من مشرعة الزلفى، فيخلصه لنفسه، ويحييه حياة إلهية وإن كانت الأسباب الظاهرية أجمعت على هلاكه، ويرفعه وإن توفّرت الحوادث على ضعته، ويُعزّه وإن دعت النوائب ورزايا الدّهر إلى ذلّته، وحطّ قدره.

لقد كان عليه‌السلام عبداً مخلصاً في عبوديته، فأخلص الله لنفسه، وعزّه بعزّته، وقد تجمّعت الأسباب على إذلاله وضعته، فكلّما ألقته في إحدى المهالك، أحياه الله تعالى من نفس السبيل التي كانت تسوقه إلى الهلاكة: حسده اخوته، فألقوه في غيابة الجبّ، ثم شروه بثمن بخس دراهم معدودة. فَذُهِبَ به إلى مصر، وأُدخل في بيت الملك والعزّة، ثم راودته التي هو في بيتها عن نفسه، واتهمته عند العزيز، ثم اعترفت عند النسوة ببراءته، ثم اتهمته وأدخلته السجن، فكان السجن سبب قربه عند الملك.

والحاصل: كلّما نازعه شيء من الأسباب المخالفة، أو اعترضته في طريق كماله، جعل الله تعالى ذلك هو السبب في رشده أمره. ولم يزل سبحانه يحوّله من حالٍ إلى حال حتى أتاه الحكم والملك، وعلّمه من تأويل الأحاديث، وأتمّ نعمته عليه، كما وعده أبوه وجعله مثالاً يحتذى للعبد الصالح.

٢ ـ الملك أخناتون:

يقول شيخنا الأستاذ الهرندي (دام ظله): إنّ القضية التي حاولت أن تفتح لي نافذة للتعرف على هذه الشخصية هي التعابير عن هذه الشخصية، التي رافقت سيدنا يوسف عليه‌السلام وشاركته في صنع

الحدث. وبحسب قراءة القرآن الكريم ـ وهو المصدر الوحيد الذي نعتقد بصحته، وصدقه ومطابقته مع الواقع ـ لم نجد ذماً لهذه الشخصية، وكل التعابير التي وردت عنه بلفظ: (الملك)، وليس فيها تعبير يفتح باب التشكيك في شخصية هذا الإنسان، ولم نجد نصاً اسقاطياً لتلك الشخصية التي شاركت يوسف عليه السلام في صنع القصة.

والملك في الكتاب الكريم يطلق على من يستحقّ الملوكية الشرعية. ولنستعرض الآيات المباركة التي جاءت على ذكر الملك:

١ ـ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾[1].

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[2].

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[3].

٤ ـ قال تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن

(١) سورة يوسف: الآية ٤٣.
(٢) سورة يوسف: الآية ٥٠.
(٣) سورة يوسف: الآية ٥٤.

وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾[١].

في كل هذه الآيات لم نجد هناك ذماً موجهاً إلى الملك والتي شاركت يوسف عليه السلام في صنع الحدث.

ثم هناك نقطتان هامتان تدلاّن على استقامة هذه الشخصية:

الأولى: استعانة يوسف عليه السلام بالملك وطلبه منه أن يجعله على خزائن الأرض: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾[٢]. وهنا اعتراف من الملك بمكنة يوسف عليه السلام. (وقال الملك ائتوني بيوسف اجعله خالصاً لنفسي وخاصة لي فلما أتى به إليه. وكلّمه قال له إنك اليوم وقد ظهر من كمالك ما ظهر لدينا ذو مكانة مطلقة وإمامة مطلقة يمكنك من كل ما تريد ويأتمنك على جميع شؤون الملك وقر ذلك حكم صدارته)[٣].

ثم طلب يوسف من الملك أن يجعله على خزائن الأرض: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾[٤].

يقول السيد الطباطبائي: (لما عهد الملك ليوسف إنك اليوم لدينا مكين أمين وأطلق القول سأله يوسف عليه السلام أن ينصبه على خزائن الأرض ويفوض إليه أمرها، والمراد بالأرض أرض مصر... ولم

---

(١) سورة يوسف: الآية ٧٦.
(٢) سورة يوسف: الآية ٥٤.
(٣) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ١١/ ١٦٨.
(٤) سورة يوسف: الآية ٥٥.

يسأل ما سأل إلاّ ليتقلّد بنفسه إدارة أمر المبرة وأرزاق الناس فيجمعها ويوفرها للسنين السبع الشداد التي سيستقبل الناس وتنزل جدبها ومجاعتها ويقوم بنفسه لقسمة الأرزاق بين الناس وإعطاء كل منهم ما يستحقه من الميرة من غير سبق..

وقد علل سؤاله ذلك بقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

فإن هاتين الصفتين هما اللازم وجودهما فيمن يتصدى مقاماً هو سائله ولا غنى عنهما له)[١].

وهذا اعتراف بشرعية الملك. وإن كان الملك الحقيقي رسول الله عليه السلام. لكن قد يستعين الملك الحقيقي بآخرين كولاة الرسول صلى الله عليه وآله وولاة الأئمة عليهم السلام. فكأن مطالبته بالنصب اعتراف بشرعية ملوكيته، فيكون تنصيباً ضمنياً.

والآية أيضاً تدل على إمضاء ما عمله وما قام به وهو دليل على شرعية فعله.

الثانية: أن هناك آية يستفاد منها اعتراف ملك مصر (أخناتون) بنبوّة يوسف عليه السلام وهي قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾...[٢].

ونشعر من هذا الإعتراف بعصمة سيدنا يوسف عليه السلام وصدقه. ومن المعلوم أنه إذا ثبتت عصمته في الكذب تثبت في بقية المجالات

---

(١) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن ١١، ١٦٨.
(٢) سورة يوسف: الآية ٤٦.

الأخرى. لأن العصمة يدور أمرها بين الوجود والعدم. فإذا ثبتت في قضية معينة تثبت في جميع الأمور والقضايا.

ثم إعطاؤه مطلق الصلاحيات كما تدل عليه قراءة الآيات المباركة. قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وهنا، الطلب من الملك منح يوسف عليه السلام الصلاحيات المطلقة، ومعناه: أن الملك أصبح رمزاً للقوة. أما على مستوى الإدارة التنفيذية فكلها كانت ترجع إلى يوسف عليه السلام. وبالنتيجة انتقال السلطة من الملك إلى سيدنا يوسف عليه السلام وهو الملك الحقيقي لأن النبي لا يتقدم عليه أحد.

فالشخصية الملكية (أخناتون) شخصية مقبولة بحسب قراءتنا للآيات المباركة.

ومن هذا المنطلق نتمكن من الإجابة عن التساؤل:

من هو هذا الملك آنذاك؟ وكيف هيّأ الله الأسباب ليوسف لكي يصل إلى هذا الملك، ويتبوأ على خزائن الأرض بعد أن ينال ثقته؟

نقول: إن مجموعة الإمارات الموجودة في السورة المباركة والتي تقدمت تدل على أنه كان موحّداً، ولم يكن مشركاً منتمياً إلى الأديان التي انتشرت في زمان الفراعنة في مصر.

---

(١) سورة يوسف: الآيتان ٥٤ و ٥٥.

ولنستعرض عن هذا الملك ما ورد في كتاب قصة الحضارة لول ديورانت:

في عام ١٣٨٠ق. م مات امنحوتب الثالث الذي خلف تحتمس الثالث على عرش مصر، بعد حياة حافلة بالعظمة والنعيم الدنيوي، وخلفه ابنه امنحوتب الرابع الذي شاءت الأقدار أن يعرف باسم أخناتون. ولدينا تمثال نصفي لهذا الملك واضح المعارف، عثر عليه في تل العمارنة، ومنه نحكم بأنه كان شخصاً نحيل الجسم إلى أبعد حد لا يكاد يصدقه العقل، ذا وجه نسائي في رقته، شاعري أحاسيسه. وكانت له جفون كبيرة كجفون الحالمين الخياليين، وجمجمة طويلة شوهاء، وجسم نحيل ضعيف. وملاك القول أنه كان شاعراً شاءت الأقدار أن تجعل منه ملكاً.

ولم يكد يتولى الملك حتى ثار على دين آمون وعلى الأساليب التي يتبعها كهنته. فقد كان في الهيكل العظيم بالكرنك طائفة كبيرة من النساء يتخذن سراري لآمون في الظاهر، ويستمتع بهنّ الكهنة في الحقيقة.

وكان الملك الشاب في حياته الخاصة مثالاً للطهر والأمانة، فلم يرضه هذا العهر المقدس، وكانت رائحة دم الكبش الذي يقدم قرباناً لآمون كريهة نتنة في خياشيمه كما كان اتجار الكهنة في السحر والرقى، واستخدامهم نبوءات آمون للضغط على الأفكار باسم الدين، ولنشر الفساد السياسي، مما تعافه نفسه، فثار على ذلك كله ثورة عنيفة، وقال في هذا: إن أقوال الكهنة لأشد إثماً من كل ما

سمعت حتى السنة الرابعة (من حكمه) وهي أشد إثماً مما سمعه الملك امنحوتب الثالث وثارت روحه الفتية على الفساد الذي تدهور إليه دين شعبه، وكره المال الحرام والمراسم المترفة التي كانت تملأ الهياكل، وأحفظه ما كان لطائفة الكهنة المرتزقة من سيطرة على حياة الأمة. ثار الرجل على هذا كله ثورة الشعراء، فلم يقبل تراضياً ولم يقنع بأنصاف الحلول، وأعلن في شجاعة أن هاتيك الآلهة وجميع ما في الدين من احتفالات وطقوس كلها وثنية منحطة، وأن ليس للعالم إلاّ إله واحد هو أتون.

ورأى أخناتون ـ كما رأى أكبر في الهند من بعده بثلاثين قرناً ـ أن الإلوهية أكبر ما تكون في الشمس مصدر الضوء وكل ما على الأرض من حياة.

ولسنا نعلم هل أخذ نظريته هذه عن بلاد الشام، أو ابتدعها من عنده، وهل كان أتون مجرد صورة أخرى لأدونيس. وأياً كان أصل هذا الإله فقد ملأ نفس الملك بهجة وسروراً، فاستبدل باسمه الأول امنحوتب المحتوي على آمون اسم أخناتون ومعناه (أتون راض) واستعان ببعض الترانيم القديمة، وبعض قصائد في التوحيد ـ نشرت في أيام سلفه ـ فألف أغاني حماسية في مدح أتون، أحسنها وأطولها جميعاً القصيدة الآتية. وهي أجمل ما بقى لدينا من الأدب المصري القديم:

ما أجملك مطلعك في أفق السماء!

أي أتون الحي، مبدأ الحياة،

فإذا ما أشرقت في الأفق الشرقي
ملأت الأرض كلها بجمالك.
إنك جميل، عظيم براق، عال فوق كل الرؤوس،
اشعتك تحيط بالأرض، بل بكل ما صنعت،
إنك أنت رِى، وأنت تسوقها كلها أسيرة؛
وإنك لتربطها جميعاً برباط حبك.
ومهما بعدت فإن أشعتك تغمر الأرض؛
ومهما علوت، فإن آثار قدميك هي النهار
وإذا ما غربت في أفق السماء الغربي
خيم على الأرض ظلام كالموت،
ونام الناس في حجراتهم،
وعصبت رؤوسهم،
وسدت خياشيمهم،
ولم ير واحد منهم الآخر،
وسُرق كل متاعهم،
الذي تحت رؤوسهم،
ولم يعرفوا هم هذا،
وخرج كل أسد من عرينه
ولدغت الأفاعي كلها..

وسكن العالم بأجمعه

لأن الذي صنعها يستريح في أفق سمائه.

ما أبهى الأرض حين تشرق في الأفق،

حين تضيء يا أتون بالنهار

تدفع أمامك الظلام

وإذا ما أرسلت أشعتك

أضحت الأرضان في أعياه يومية،

واستيقظ كل من عليهما ووقفوا على أقدامهم

حين رفعتهم.

فإذا غسلوا أجسامهم، لبسوا ملابسهم،

ورفعوا أيديهم يمجدون طلوعك،

وأخذوا في جميع أنحاء العالم يؤدون أعمالهم،

واستراحت الأنعام كلها في مراعيها.

وازدهر الشجر والنبات،

ورفرفت الطيور في مناقعها،

واجنحتها مرفوعة تسبّح بحمدك.

ورقصت كل الأغنام وهي واقفة على أرجلها.

وطار كل ذي جناحين،

كلها تحيا إذا ما أشرقت عليها،

واقلعت السفائن صاعدة ونازلة،

وتفتحت كل الطرق لأنك قد طلعت.

وإن السمك في النهر ليقفز أمامك،

وإن أشعتك لفي وسط البحر العظيم الأخضر،

يا خالق الجرثومة في المرأة،

ويا صانع النطفة في الرجل،

ويا واهب الحياة للإبن في جسم أمه،

ويا من يهدئه فلا يبكي،

يا من يغذيه وهو في الرحم،

يا واهب الأنفاس، يا من ينعش كل من يصنعه

وحين يخرج من الجسم... في يوم مولده

تفتح أنت فاه لينطق،

وتمده بحاجاته.

والفرخ حين يزقزق في البيضة

تهبه النفس فيها لتحفظ له حياته

فإذا ما وصلت به

إلى النقطة التي عندها تُكسر البيضة.

خرج من البيضة،

ليغرد بكل ما فيه من قوة

ويمشي على قدميه

ساعة يخرج منها.

ألا ما أكثر أعمالك

الخافية علينا!

أيها الإله الأوحد الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه.

يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك

حين كنت وحيداً:

إن الناس والأنعام كبيرها وصغيرها،

وكل ما على الأرض من دابة،

وكل ما يمشي على قدمين

وكل ما هو في العلا

ويطير بجناحيه،

والبلاد الأجنبية من سوريا إلى كوش

وأرض مصر؛

إنك تضع كل إنسان في موضعه

وتمدهم بحاجاتهم

أنت موجد النيل في العالم السفلي،

وأنت تأتي به كما تحب

لتحفظ حياة الناس..

ألا ما أعظم تدبيرك

يا رب الأبدية!

من في السماء نيلاً للغرباء

ولما يمشي على قدميه من أنعام كل البلاد.

إن أشعتك تغذى كل الحدائق،

فإذا ما أشرقت سرت فيها الحياة،

أنت الذي تنميها،

أنت موجد الفصول

لكل تخلق كل أعمالك:

خلقت الشتاء لتأتي إليها بالبرد،

وخلقت الحرارة لكي تتذوقك.

وأنشأت السماء البعيدة، وأشرقت فيها

لتبصر كل ما صنعت،

أنت وحدك تسطع في صورة أتون الحي.

تطلع، وتسطع، وتبتعد، وتعود.

إنك تصنع آلاف الأشكال

منك أنت وحدك؛

من مدائن، وبلاد، وقبائل؛

وطرق كبرى وأنهار.

كل الأعين تراك أمامها،

لأنك أنت أتون النهار فوق الأرض.

إنك في قلبي

وما من أحد يعرفك

إلاّ ابنك أخناتون.

لقد جعلته حكيماً

بتدبيرك وقوّتك.

إن العالم في يدك

بالصورة التي خلقته عليها،

فإذا أشرقت دبت فيه الحياة

وإذا غربت مات؛

لأنك أنت نفسك طول الحياة

والناس يستمدون الحياة منك،

ما دامت عيونهم تتطلع إلى سناك

حتى تغيب.

فتقف كل الأعمال

حين تتوارى في المغرب..

أنت أوجدت العالم؛

وأقمت كل ما فيه لابنك..

أخناتون، ذي العمر المديد؛

ولزوجه الملكية الكبرى محبوبته،

سيدة القطرين

نفر ـ تفرو ـ أتون، نفرتيتي،

الباقية المزدهرة أبد الآبدين

وليست هذه القصيدة من أولى قصائد التاريخ الكبرى فحسب، بل هي فوق ذلك. أول شرح بليغ لعقيدة التوحيد، فقد قبلت قبل أن يجيء إشعيا بسبعمائة عام كاملة. ولعل عقيدة التوحيد هذه كانت صدى لوحدة عالم البحر المتوسط تحت حكم مصر في عهد تحتمس الثالث، كما يقول برستد.

ويرى أخناتون أن إلهه رب الأمم كلها، بل أنه في مديحه ليذكر قبل مصر غيرها من البلاد التي يوليها الإله عنايته. ألا ما أعظم الفرق بين هذا وبين العهد القديم عهد آلهة القبائل!

ثم انظر إلى ما في القصيدة من مذهب حيوي: إن أتون لا يوجد في الوقائع والإنتصارات الحربية، بل يوجد في الأزهار والأشجار وفي جميع صور الحياة والنماء، وأتون هو الفرحة التي تجعل الخراف الصغرى (ترقص فوق أرجلها) والطير (ترفرف في مناقعها).

وليس الإله إنساناً في صورة البشر دون غيرها من الصور، بل إن هذا الإله الحق هو خالق حرارة الشمس ومغذيها، وليس ما في

الكرة المشرقة والآفلة من مجد ملتهب إلاّ رمزاً للقدرة الغائبة. على أن هذه الشمس نفسها تصبح في نظر أخناتون (رب الحب) لما لها من قدرة شاملة مخصبة مباركة، وهي فوق ذلك المرضع الحنون التي (تخلق في المرأة الطفل ـ الرجل) والتي (تملأ قطرى مصر بالحب). وهكذا يصبح أتون آخر الأمر رمزاً للأبوة الجزعة القلقة الرحيمة الرقيقة القلب؛ ولم يكن كيهوه، رب الجيوش بل كان رب الرحمة والسلام.

ومن مآسي التاريخ أن أخناتون، بعد أن حقق حُلمه العظيم حُلم الوحدانية العامة التي سمَت بالبشرية إلى الدرجات العلى، لم يترك ما في دينه الجديد من صفات نبيلة يسري في قلوب الناس ويستميلها إليه على مهل، بل عجز عن أن يفكر في الحقائق التي جاء بها تفكيراً يتناسب مع الواقع، لقد خال أن كل دين وكل عبادة عدا عقيدته وعبادته فحش وضلال لا يطاق. فأصدر أمره على حين غفلة بأن تمحى من جميع النقوش العامة أسماء الآلهة كلها إلاّ اسم أتون، وشوه اسم أبيه بأن محا كلمة آمون من مئات الآثار، وحرم كل دين غير دينه، وأمر أن تغلق جميع الهياكل القديمة. وغادر طيبة لأنها مدينة نجسة، وانشأ له عاصمة جديدة جميلة في أخناتون (مدينة أفق أتون).

وما لبثت طيبة أن تدهورت بعد أن أخرجت منها دور الحكومة ـ وخسرت رواتب الموظفين، وأضحت أخناتون حاضرة غنية أقيمت فيها المباني الجديدة ـ ونهض الفن بعد أن تحرر من أغلال الكهنة

والتقاليد. ولقد كشف سيرو ويلم فلندرز بترى في تل العمارنة ـ وهي قرية حديثة أنشأت في موقع أخناتون القديمة ـ طواراً جميلاً تزينه صور الطيور، والسمك وغيرهما من الحيوانات، رسمت كلها أدق رسم وأجمله، ولم يفرض أخناتون على الفن قيوداً بل كان ما فعله من هذا القبيل أن حرم على الفنانين أن يرسموا صوراً لأتون، لأن الإله الحق في اعتقاده لا صورة له، وما أسمى هذه من عقيدة. ثم ترك الفن بعدئذ حراً طليقاً، عدا شيئاً واحداً آخر، وهو أنه غلب إلى فنانيه: بك، وأوتا، ونتموز، أن يمثلوا الأشياء كما يرونها، وأن يغفلوا العرف الذي جرى عليه الكهنة. وصدع هؤلاء بأمره، وصوروه هو نفسه في صورة شاب ذي وجه ظريف رقيق رقة تكاد تبلغ حد الوجل، ورأس مستطيل مسرف في الطول، واسترشدوا في تصويرهم بعقيدته الحيوية في إلهه، فصوروا كل الكائنات الحية نباتية كانت أو حيوانية في تفصيل ينم عن حب وعطف عظيمين؛ ودقة لا تسموا عليها دقة في أي مكان أو زمان، وكان من أثر هذا أن ازدهر الفن أعظم ازدهار لأن الفن في جميع العصور يحس بآلام المسبغة والقتام.

ولو أن أخناتون كان ذا عقل ناضج لأدرك ما يريده من خروج على تعدد الآلهة القديم المتأصل في عادات الناس وحاجاتهم، إلى وحدانية فطرية تخضع الخيال للعقل، لأدرك أن هذا تغيير أكثر من أن يتم في زمن قصير، وإذن لسار في عمله على مهلٍ وخفف من حدة الإنتقال بأن جعله على مراحل تدريجية. ولكنه كان شاعراً لا

فيلسوفاً. فاستمسك بالحقيقة المطلقة فتصدع بذلك جميع بناء مصر وانهار على أم رأسه.

ذلك أنه ضرب ضربة واحدة جرد بها طائفة غنية قوية من تراثها فأغضبها عليه، وحرم عبادة الآلهة التي جعلتها العقيدة والتقاليد عزيزة على الناس. ولما أن محا لفظ آمون من اسم أبيه خيل إلى الناس أن هذا العمل زيغ وضلال، إذ لم يكن شيء أعز عليهم من تعظيم الموتى من أسلافهم. وما من شك في أن أخناتون قد استخف بقوة الكهنة وعنادهم وتغالى في قدرة الشعب على فهم الدين الفطري. وقام الكهة من وراء الستار يأتمرون ويتأهبون، وظل الناس في دورهم وعزلتهم يعبدون آلهتهم القديمة المتعددة. وزاد الطين بلة أن مئات الحرف التي لم تكن لها حياة إلاّ على حساب الهياكل أخذت تزمجر في السر غضباً على الملك الزنديق، بل إن وزراءه وقواده بين جدران قصوره كانوا يحقدون عليه ويتمنون موته. ألم يكن هو الرجل الذي ترك الدولة تنهار وتتقطع أوصالها بين يديه؟

وكان الشاعر الفتى في هذه الأثناء يعيش عيشة البساطة والإطمئنان، وكانت له سبع بنات، ولكنه لم يكن له ولد ذكر، ومع أن القانون كان يجيز له أن يطلب له وارثاً ذكراً من زوجة ثانية، فإنه لم يقدم على هذا الحل، وآثر أن يظل وفياً لنفرتيتي. ولقد وصلت إلينا تحفة صغيرة من عهده تظهره يحتضن الملكة؛ كما أجاز لمصوريه أن يرسموه في عربة يسير بها في الشوارع يلهو ويطرب مع زوجته وبناته. وكانت الملكة تجلس إلى جانبه في الإحتفالات

وتمسك بيده. كما كانت بناته يلعبن إلى جانب عرشه. وكان يصف زوجته بأنها (سيدة سعادته) ويقول (إن الملك يبتهج قلبه حين يسمع صوتها)؛ وكان في قَسمه يقْسم بهذه الصيغة: (بقدر ما تسعد وقلبي الملكة أطفالها). لقد كان حكم هذا الملك فترة من الحنو والعطف وسط ملحمة القوة والسلطان في تاريخ مصر.

وجاءت الرسائل المروعة من الشام[1] تنغص على الملك هذه السعادة الساذجة البريئة، فقد غزا الحثيون وغيرهم من القبائل المجاورة لهم البلاد التابعة لمصر في الشرق الأدنى. وأخذ الحكام المعيّنون من قِبَل مصر يلحون في طلب النجدة العاجلة. وتردد أخناتون في الأمر؛ ذلك أنه لم يكن على ثقة من أن حق الفتح يبرر إخضاع هذه الولايات لحكم مصر؛ وكان يكره أن يرسل المصريين ليهلكوا في ميادين القتال البعيدة دفاعاً عن قضية لا يثق بعدالتها. ولما رأت الولايات أنها لا تطلب النجدة من ملك حاكم بل تطلبها من ولي صالح، خلعت حكامها المصريين، وامتنعت في غير جلبة عن أداء شيء من الخراج، وأصبحت حرة مستقلة في جميع شؤونها. ولم يمض من الزمن إلاّ أقصره حتى خسرت مصر امبراطوريتها الواسعة، وانكمشت حتى عادت دولة صغيرة ضيقة الرقعة. وسرعان ما أقفرت الخزانة المصرية التي ظلت قرناً كاملاً تعتمد أكثر ما تعتمد

(١) في عام ١٨٩٣ عثر سير فلندرز بترى في تل العمارنة على أكثر من ثلاثمائة وخمسين لوحة هي رسائل مكتوبة بالخط المسماري معظمها طلبات ملحة للنجدة موجهة إلى أخناتون من بلاد الشرق.

على ما يأتيها من الجزية الخارجية، ونقصت الضرائب المحلية إلى أقصى حد، ووقف العمل في مناجم الذهب، وعمت الفوضى جميع فروع الإدارة الداخلية. وألفى أخناتون نفسه معدماً فقيراً لا صديق له ولا معين في عالم كان يخيل إليه من قبل أنه كله ملك له. واندلع لهيب الثورة في جميع الولايات التي كانت تابعة لمصر وقامت جميع القوى الداخلية في وجهه تناوئه وتترقب سقوطه.

ولم يكد يتم الثلاثين من عمره حتى توفى عام ١٣٦٢ ق. م محطم القلب بعد أن أدرك عجزه من أن يكون مَلكاً، وأيقن أن شعبه غير جدير به[(١)].

إذن: بحسب ما ينقله المؤرخون، فإنه الملك الوحيد الذي تبنى نظرية التوحيد في كل السلالات التي حكمت مصر. لكن بعد مماته رجعت مصر إلى وثنيتها وعادت إلى آمون.

ومن هنا فلا نتمكن من تحديد تاريخ وجود يوسف عليه السلام وفي أي قرن كان. ولكننا نعلم على وجه العموم من طريق القرآن الكريم بوجوده عليه السلام فقط. حيث أننا نعتقد بصحة كل ما ورد في القرآن الكريم وأن جميع الأنبياء كانوا موجودين، لكن متى كانوا موجودين؟ فهو الأمر المسكوت عنه، لأن المصدر الوحيد الذي يمكننا الإعتماد عليه هو القرآن الكريم وهو لا يحدد أزمنتهم. وأما

---

(١) دل وايريل ديورانت: قصة الحضارة، ٢/١٦٨ ـ ١٧٥، الشرق الأدنى، ترجمة: محي بدران، بيروت.

التواريخ الموجودة فهي تبتني على أمور ظنية بحتة لا يمكن الإعتماد عليها.

دخول يوسف عليه السلام إلى مصر:

إذن ومما تقدم، وبعد أن تعرفنا على هوية يوسف النبي عليه السلام وكيفية وصوله إلى مصر، ينبثق التساؤل التالي:

هل كان دخوله عليه السلام إلى مصر أمراً عبثياً وقع من دون قصد، أم كان بتدبير إلهي؟

إن الجواب عن هذا السؤال يستدعي معرفة أحوال مصر الدينية. فقد كانت وثنية، ثم تحوّلت إلى التوحيد بفعل ملكها (أخناتون) الذي تحرّك لنشر بذرة التوحيد في مصر، فإن الله سبحانه أرسل سيدنا يوسف عليه السلام لأخناتون لكي يساعده على إنبات بذرة الصلاح في مصر وأن تشمله العناية الإلهية، وأن يقف بجانبه شخص يتمكن من وضعه في الطريق الصحيحة. وهذا الشخص الذي استعان به الملك بحسب القصة القرآنية منحصر بيوسف عليه السلام.

ومن ذلك نستكشف حكمة الارسال: فقد وجد أخناتون في مصر وكان يحتاج إلى من يرشده، ويدعمه لأن المجتمع المصري ـ آنذاك ـ كان يسير نحو الباطل، فإذا لم يحصل الدعم الإلهي: المادي والمعنوي لهذا الملك، فستموت بذرة التوحيد في تاريخ مصر، تنفيذاً لوعد الله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1] وتكون

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

الهداية بإرسال أحد أنبيائه عليه السلام إلى مصر ليدعم الملك (أخناتون) ويرشده.

فالقحط الذي أصاب مصر، والرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام والحلم الذي وقع من الملك وغيرها هي تدابير إلهية أرهصت بوقوع أحداث بعدها فيوسف الغريب السجين لا يمكن أن يصل إلى الملك (أخناتون) إن لم تكن له مقبولية اجتماعية تمثّلت بحل مشكلة القحط، والجدب اللذين أصابا أهل مصر، وبذلك فرض يوسف عليه السلام نفسه على أهل مصر منقذاً.

وبذلك خلق له قاعدة شعبية تثق بقيادته، وحسن تصرفه. وبذلك ربط أهل مصر بأخناتون الذي كسب ودّهم وثقتهم مما أعانه على نشر فكرة التوحيد في مصر.

وعلى هذا نرى أن سفر يوسف عليه السلام ودخوله مصر كان في عهد الملك (أخناتون) الملك الموحّد، ـ وهذه هي حكمة الارسال ـ: بأن يتمكّن الطفل العبري أن يصل إلى مصر، ويدخل إلى بلاط الملك ـ الذي كان عند المصريين نصف إله إن لم يكن إلهاً كاملاً ـ. فإن الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى أعلى سلطة في الأرض بالطرق الطبيعية، فكانت هذه الطرق الغريبة: اسقاطه في البئر، ثم جاء من اشتراه ونقله إلى مصر، وعرضه في سوق النخاسة، فيمرّ عزيز مصر ووزيرها آنذاك فيشتريه، ويجعله في بيته مع أهله، ويمرّ عليه السلام بتلك التجربة القاسية التي نقلته إلى السجن. وهناك في السجن يرتبط بصاحب شراب الملك والمسؤول عن طعامه، وعن طريق تفسير

الحلمين، يصل إلى الملك، ويكسب ثقته، ويتولّى بذلك منصب عزيز مصر، ولو كان باقياً في كنعان لما كان له طريق إلى الملك، ولما وصل إلى ما وصل إليه.

ومن هنا نستكشف التدبير الإلهي، وحكمة انتخاب هذا الأسلوب من قبل الذات المقدسة، فهناك أربع محطّات، تشكل عقد البناء الفني الدرامي للقصة وتؤسس لتصاعد ونمو الأحداث وكشف ملامح الشخصيات الأخرى وتربط الوقائع التاريخية حتى لو مهدت لها الرؤيا:

الأولى: البئر.

الثانية: بيت عزيز مصر.

الثالثة: السجن.

الرابعة: القصر الملكي.

وبهذه الطريقة أرسل البارئ الحكيم عزّ وجل يوسف عليه السلام إلى مصر ليدعم أتون الذي بذر بذرة التوحيد في أرض مصر، ووقف بجانبه تعبيراً عن دعم السماء له، فأثبت عليه السلام له قاعدة توحيدية بين أهل مصر. وبسببه انتقل بنو إسرائيل (يعقوب وأولاده) إلى مصر. وهذه ـ أيضاً ـ من التدابير الإلهية، فإن شعب مصر ـ آنذاك ـ كان هو الشعب المتميز بحضارته، وعمق تفكيره، فقد كانت الحضارة المصرية القديمة أوسع وأشمل الحضارات بالقياس إلى الحضارات الأخرى.

يميل شيخنا الأستاذ المعظم (دام ظله) إلى: أن انتقال بني إسرائيل (يعقوب) إلى مصر، كان ممهّداً لرسالة موسى عليه السلام

التوحيدية، ومن مصر انطلق موسى عليه السلام حاملاً راية التوحيد، ليدك قواعد الشرك في العالم، وليصدع بأول شريعة سماوية متكاملة شاملة.

وحين نقرأ في المزمور ١٠٤ سنجد قصيدة شعرية هي أقرب إلى القصيدة المنسوبة إلى أخناتون الملك:

«باركي يا نفسي الرّب. يا ربُّ إلهي قد عظُمت جداً مجداً وجلالاً لبستَ. اللابسُ النورِ كثوبٍ الباسطُ السماواتِ كشقّةٍ المسقّفُ علاليهُ بالمياهِ الجاعِلُ السّحابِ مركبَتَهُ الماشي على أجنبةِ الريح الصانعُ ملائكتهُ رياحاً وخُدّامه ناراً ملتهبةً المؤسّس الأرض على قواعِدِها فلا تتزعزعُ إلى الدهر والأبدِ. كسوتَها الغمرَ كثوبٍ. فوق الجبالِ تقفُ المياهُ. من انتهارِكَ تهرُبُ من صوتِ رعدِك تفِرُّ. تصعَدُ إلى الجبالِ. تنزلُ إلى البقاعِ إلى الموضعِ الذي أسّسته لها. وضعت لها تخماً لا تتعدّاه. لا ترجِع لتُغطّي الأرض المفجّرُ عيوناً في الأودية. بين الجبالِ تجري. تسقي كلَّ حيوانِ البر. تكسِرُ الفراءُ ظمأها. فوقها طيورُ السماءِ تسكُن. من بينِ الاغصانِ تُسمّعُ صوتاً. الساقي الجبال من علاليه. من ثمرِ أعمالِكَ تشبعُ الأرضُ. المُنبِتُ عُشباً للبهائِم وخُضرةً لخدمةِ الإنسانِ لإخراج خبزٍ من الأرض. وخمرٍ تُفرِّحُ قلبَ الإنسان لإلماعِ وجهه أكثر من الزيت وخُبزٍ يُسنِدُ قلبَ الإنسان. تشبَعُ أشجارُ الرّبِّ أرزُ لبنان الذي نصَبَهُ. حيثُ تُعشّشُ هناك العصافيرُ. أما اللّقلقُ فالسّرو بيتهُ. الجبالُ العاليةُ للوعولِ الصّخورُ ملجأً للوِبار.

صنعَ القمر للمواقيتِ الشمسُ تعرفُ مغرِبها. تجعلُ ظلمةً فيصيرُ ليلٌ. فيه يدبُّ كُلُّ حيوانِ الوَعْرِ. الأشبالُ تُزَمجِرُ لِتخطَفَ وَلِتلْتَمِس من اللهِ طعامَها. تُشرِقُ الشمسُ فتجتمعُ وفي مآويها تربِضُ. الإنسانُ يخرُجُ إلى عملِهِ وإلى شُغله إلى المساء. ما أعظمَ أعمالَكَ يا ربُّ. كُلُّها بحكمةٍ صنعتَ. ملآنةٌ الأرضُ من غِناكَ. هذا البحرُ الكبيرُ الواسعُ الأطرافِ. هناكَ دبّاباتٌ بلا عدد. صغارُ حيوانٍ مع كباره. هناك تجري السفن. لوياتان هذا خلقته ليلعب فيه. كلُّها إيّاك تترجّى لترزُقَها قوتها في حينه. تُعطيها فتلتقِطُ. تفتحُ يدَكَ فتشبعُ خيراً. تحجُبُ وجهَكَ فترتاعُ. تنزِعُ أرواحَها فتموتُ وإلى تُرابِها تعودُ. تُرسِلُ روحَك فتُخْلَقُ. وتُجدّدُ وجهَ الأرض.

يكونُ مجدُ الرّبِّ إلى الدّهر. يفرَحُ الرّبُّ بأعماله. الناظرُ إلى الأرض فترتعِدُ يمسُّ الجبالَ فتُدخِّنُ. أغنّي للرب في حياتي. أُرنّمُ لإلهي ما دُمْتُ موجوداً. فيلذُّ له نشيدي وأنا أفرحُ بالرب. لتُبدِ الخُطاةُ من الأرض والأشرارُ لا يكونوا بعدُه باركي يا نفيس الرّبَ. هللويا».

فهذه القصيدة عندما تضعها بجانب القصيدة المنسوبة إلى الملك المصري ـ التي تقدم ذكرها ـ تحس أنها صدرت من نبع واحد، وعن لسان واحد، وتفكير واحد يمهد لما سيأتي بعده من قناعات. وهي ـ في الحقيقة ـ ليست للملك وإنما هي ليوسف النبي عليه السلام، وقد علّمها للملك المصري الموحّد ـ أخناتون .. فهي تعبير عن فكر توحيدي رصين لا يصدر إلاّ عن رجل متكامل كيوسف عليه السلام.

ومن هنا نؤكد ما قرّرناه سابقاً: إن انتقال يوسف عليه السلام من أرض

كنعان إلى مصر لم يكن انتقالاً اعتباطياً، بل كان انتقالاً رسالياً وفق مخطط إلهي. فلم تكن السفرة صدفة، وإنما كانت لحمل رسالة التوحيد، وإخراج مصر من التعدّدية إلى الوحدانية، التي استمرت إلى زمن سيدنا موسى عليه السلام فقد بنيت آثارها وجذورها كامنة في أعماق الشعب المصري تظهر حيناً بعد حين. جاء في القرآن الكريم إشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾[1] وبين يوسف وموسى عليهما السلام أجيال متعددة. ويعني بـ «مؤمن» موحّد. «يكتم إيمانه» فإن المجتمع المصري بعد يوسف عليه السلام رجع إلى الوثنية بشكل تدريجي، فعاد آمون ومعبده وكهنته وتعدديته.

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾...[2]. وهكذا يتجلى الإيمان والتوحيد الذي أسسه يوسف عليه السلام حيناً بعد حين رغم غلبة الوثنية عليه، فقد جاءهم يوسف بالبينات ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾[3] فيوسف عليه السلام نبي من الله جاءهم برسالة التوحيد و ﴿جَآءَكُمْ﴾ تدلّ على أن رسالته كانت لأهل مصر خاصة.

وبالمحصلة: فان قراءة الآيات المباركة من سورة يوسف تدفعنا الى الاعتقاد بأن يوسف عليه السلام سافر إلى مصر في زمن أخناتون، لأنه

---

(١) سورة غافر: الآية ٢٨.

(٢) سورة غافر: الآية ٢٨.

(٣) سورة غافر: الآية ٣٤.

لا يوجد ملك آخر موحد، فهو يستعين بيوسف عليه السلام. فالله سبحانه أرسل سيدنا يوسف عليه السلام لأخناتون، وأنه تحرّك لنشر التوحيد، فلابد من أن تشمله العناية الإلهية. وأن يقف بجانبه شخص يتمكن من وضعه على الطريق الصحيح، وهذا الشخص هو يوسف عليه السلام. ومن كل ذلك نستكشف حكمة الارسال. فإن انتقال يوسف عليه السلام من كنعان إلى مصر لم يكن انتقالاً اعتباطياً، بل كان انتقالاً رسالياً مخططاً له الهياً لأجل نقل الرسالة التوحيدية إلى مصر بعدما وجدت بذورها الأولى في الملك المصري الموحد (أخناتون).

ومما تقدم نستفيد:

١. أن سفرة يوسف إلى مصر كان تخطيطاً إلهياً لأجل نقل الرسالة التوحيدية إلى مصر بعدما وجدت جذورها في الملك المصري.

٢. أن ملك مصر الموحد (أخناتون) هو الموحد الوحيد في سلالة الملوك المصرية، فقد اتفق المؤرّخون أن هناك ملكاً واحداً موحداً في جميع السلالات المصرية وهو الذي دعا إلى وحدانية الله ـ تبارك وتعالى ـ وكل ملوك مصر وثنيون تبع لآلهة متعدّدة كما يذكره تاريخ الأديان.

أما علماء الآثار المصرية فقد طلعوا بمفاجأتهم الكبرى في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي حينما أعلنوا عن اكتشافهم لفرعون جديد لم يكن وجوده معروفاً قبل هذا التاريخ. والمفاجأة الأكبر كانت اكتشافهم أن هذا الفرعون قد أسس ديناً جديداً يختلف

جذرياً عن الديانات الأخرى التي كانت متداولة في مصر وهو أول دين توحيدي عرفه التاريخ، عدا ما ورد في الكتب المقدسة عن التوحيد في دين آدم ونوح عليهما السلام وغيرهما من الأنبياء الأقدمين عليهم السلام.

جلس هذا الفرعون على العرش تحت اسم (آمينو فيسس) الرابع، لكنه ما لبث أن غيّر اسمه مع تأسيسه للدين الجديد فجعله (أخناتون) وهو اشتقاق من اسم الإله الواحد: (آتون).

فاجعة هذا الفرعون أصبحت معروفة: تبوّأ العرش وهو في الثالثة عشرة عام ١٣٧٠ ق.م عند وفاة أبيه (آمينوفس) الثالث. وتزوج ـ خلافاً للعادة الملكية التي كانت تقتضي بزواج الفرعون من شقيقته الكبرى وريثة العرش ـ من فتاة بارعة الجمال في الثالثة عشرة من عمرها أيضاً. وقد خلّدها التاريخ تحت اسم (نفرتيتي). وفي العام الرابع من ولايته أعلن رسمياً رفضه لتعدد الآلهة التي كان يرمز إليها في أسماء الفراعنة بالمصدر (آتون) واتخذ لنفسه عاصمة جديدة، كما اتخذ اسمه الجديد رمزاً للإله الواحد (رع) بعد أن أعلنه الإله الواحد الأحد.

أما زوجته الجميلة (نفرتيتي) فقد انقطعت أخبارها قبل انتهاء حكم (أخناتون)، وفي السنة السابعة عشرة من ولايته قامت عليه ثورة أطاحت به، وأعادت ديانة الآلهة المتعدّدة.

كان فرعون الموحّد مسالماً، كما أوحت له عقيدته الجديدة، فأخذت مملكته تتقلّص شيئاً فشيئاً لابتعاده عن العنف والحرب بينما كان يحاول إقناع حكام أمصار ملكه الشاسع باعتناق الدين الجديد.

تصوّف الفرعون المسالم المتدين جعل منه شاعراً يؤلّف القصائد تمجيداً لإلهه الجديد (رع). وسقطت ممالكه تباعاً: مدينة تونيب، بيبلوس، القدس. ثم سقط (أخناتون) نفسه ومعه دينه الجديد، وقامت الجيوش المصرية تطارد فلول أتباعه الهاربين نحو الشمال، وأخذت القبائل المختلفة تهاجم المملكة من كل الجهات.

٣ ـ امرأة العزيز:

وهي (زليخا) وهي عزيزة مصر. وصّاها العزيز بيوسف أن تكرم مثواه، وأعلمها أن له إربة، وأمنية، فلم تزل تجتهد في إكرام يوسف، وتحسن مثواه، وتهتمّ بأمره، لا كما يُهتم في أمر رقيق مملوك، بل كما يُعنى بأمر جوهر كريم، أو قطعة كبد، وتحبّه لبديع جماله، وغزير كماله، وتزداد ـ كلّما مضت الأيام ـ حبّاً إلى حب حتى إذا بلغ الحلم، واستوى مستوى الرجال، لم تملك نفسها دون أن تعشقه، وتذلّ على مالها من مناعة الملك، والعزّة، وعصمة العفة، والخدارة تجاه هواه القاطن بسرّها الآخذ بمجامع قلبها.

وقد كان يوسف يلازمها في العشرة، ولا يفارق بيتها من جانب، وكانت عزيزة، لا يُثنى أمرها، ولا تردّ عزيمتُها، وكانت العزيزة ذات مالٍ، وجمال وزينة فإن حريم الملوك، لا تدخلها شوهاء دميمة.

والعادة تحكم أن هذه الأسباب ـ وقد اجتمعت على عزيزة مصر ـ أسعرت في قلبها كل لهيب، حتى استغرقت في حب يوسف، وتولّهت في غرامه، وليوسف الجمال الذي يأخذ بمجامع القلوب،

فكيف إذا امتلأت به عين محبٍّ واله. ولم تزل عزيزة مصر تَعِد نفسها، وتمنّيها بوصال يوسف والظفر بما تبتغيه منه، ولعلّ الذي كانت تشاهده من صبر يوسف، وسكوته، كان يغريها فيما ترومه. حتى إذا تاقت نفسها له وبلغت بها وأعيتها المذاهب، خلت به في بيتها، وقد غلّقت الأبواب، وهي لا تشك أن سيطيعها يوسف في أمرها، ولا يمتنع عليها لما كانت تراه بالسمع والطاعة.

فتىً واله في حبّه، وفتاة تائقة في غرامها اجتمعا في بيت خالٍ. أما هي فمشغوفة بحبّ يوسف، تريد أن تصرفه عن نفسه إلى نفسها. وأما هو، فقد استغرق في حب ربه، وأخلص وصفّى ذلك نفسه.

ترى أنها تتوسل عليه بالأسباب بتغليق الأبواب والمراودة والأمر بقولها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ وأما هو فقد قابلها بقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ وأما قوله لها ثانياً: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فقد أفاد:

أولاً: أنه موحد.

وثانياً: أنه ليس ممّن يوحّد الله سبحانه قولاً، ويشرك به فعلاً.

وثالثاً: أنه إنما تعوّذ بالله ممّا تدعوه إليه، لأنه ظلم، لا يفلح المتلبّس به.

ورابعاً: أنه مربوب ـ أي: مملوك مدبّر لله سبحانه، ليس له من الأمر شيء، ولا يملك لنفسه نفعاً، ولا ضراً إلاّ ما شاء الله له.

وقد كانت هناك أسباب دافعة: فقد كان يوسف عليه السلام رجلاً ومن

غريزة الرجال الميل إلى النساء، وكان شاباً بالغاً أشدّه، وفي أوان غليان الشهوة، وثوران الشبق.

وكانت (زليخا) امرأة العزيز جميلة متزيّنة، عاشقة والهة تتوق إليها النفوس وتتوق نفسها إليه.

وكانا في خلوة، وقد غلقت الأبواب، وأرخت الستور، وكان لا يأمن من الشر مع الإمتناع.. كل هذه العوامل دافعة لأن يفعل ما تطلبه منه: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[١]. ولكن الله نجّا يوسف من هذه الغائلة، وصرف عنه السوء والفحشاء حينما رأى برهان ربّه. فلولا ما رآه من البرهان لكان الواقع هو الهمّ والإقتراب دون الإرتكاب والإقتراف، لأن من شأن المخلصين من عباد الله أن يرى برهان ربهم، وأن الله سبحانه يصرف كل سوء وفحشاء عنهم، فلا يقترفون معصية ولا يهمّون بها بما يريهم الله من برهانه.

وهذا البرهان الذي أراه به ـ وهو الذي يريه الله عباده المخلصين ـ نوع من العلم المكشوف، واليقين المشهود، تطيعه النفس الإنسانية طاعة، لا تميل معها إلى معصية أصلاً.

ثم استبقا الباب: يوسف يريد الهرب والفرار من المعصية، وهي تريد ايقاعه في المعصية ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾[٢] فبدأت امرأة

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢٤.

(٢) سورة يوسف: الآية ٢٥.

العزيز تشكو يوسف وتسأله أن يجاز به لأنه أراد بها سوءاً، وعليه أن يسجنه، أو يعذّبه عذاباً أليماً، فقال يوسف ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾(١).

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ﴾(٢): وقد أشار هذا الشاهد إلى دليل تنحلّ به العقدة، فإن من البيّن أن أحدهما صادق في دعواه، والآخر كاذب، وكون القدّ من قُبل يدلّ على منازعتهما ومصارعتهما بالمواجهة، فالقضاء لها عليه، وإن كان قميصه قُدّ من دُبر، فكذبت وهو من الصادقين، فالقضاء له عليها. فلما رأى العزيز قميص يوسف مقدوداً مشقوقاً من خلف، قال: إن الأمر من كيدكن ـ معشر النساء ـ إن كيدكن عظيم. وهكذا قضى العزيز ليوسف على امرأته ولما كثر الحديث عن مراودة امرأة العزيز ليوسف بين نساء العلية من القوم، وشاع حتى بلغ الخبر امرأة العزيز، أرسلت لهنّ للحضور لديها، فتهيّأن للحضور، وكل تتمنّى أن ترى يوسف وتشاهد ما عنده من الحسن الذي أوقع على العزيزة ما أوقع، وفضحها. ثم لما حضرن عند العزيزة، وأخذن مقاعدهن، أتت كل واحدة منهن سكيناً، وقدّمت إليهن الفاكهة. عند ذلك أمرت يوسف أن يخرج إليهن، وقد كان مستوراً عنهنّ. فلما طلع يوسف عليهن، ووقعت أعينهنّ عليه، طارت عقولُهنّ، وطاحت أحلامهنّ، ولم يدرين دون أن قطعن أيديهن مكان الفاكهة، وقلن ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢٦.

(٢) سورة يوسف: الآية ٢٦.

كَرِيمٌ﴾[١]. فقالت امرأة العزيز ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾[٢] فأبدت سراً ما كانت تعترف به من قبل، ثم هددت يوسف: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[٣]. أما يوسف، فلم يلتفت إلى ما كانت امرأة العزيز تسمعه من القول، وإنما رجع إلى ربه، فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[٤].

قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ * وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[٥].

يقول شيخنا الأستاذ آية الله الهرندي (دام ظله): هناك نقاط في الآية المباركة، لو ركّز الباحث عليها، كان المحتمل عنده وقوع حدثين، لا حدثٍ واحدٍ. لأن الآية المباركة افتتحت بـ ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾ ثم بـ إغلاق الأبواب ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ ثم بقولها ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ ثم ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ ثم ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾. فهل هذه

---

(١) سورة يوسف: الآية ٣١.
(٢) سورة يوسف: الآية ٣٢.
(٣) سورة يوسف: الآية ٣٢.
(٤) سورة يوسف: الآية ٣٣.
(٥) سورة يوسف: الآيتان ٥٣ ـ ٥٤.

المفاصل كلها تشير إلى أن الواقع بينها وبينه حدث واحد أو أن هناك حدثين؟

أكثر المفسرين يقول: إنّ الآيات الشريفة تشير إلى حدث واحد وهو محاولة زليخا إجبار يوسف عليه السلام على ممارسة الحب. لكن الألفاظ التي استعملت للتدليل على الحدث بعضها يتلاءم مع تفسير الحدث بممارسة الحب كـ ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾ و﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾ فيها نوع من الدلالة على ممارسة الحب، وهناك مناسبة بين التركيبة الحرفية، وبين الحدث.

وكذلك قولها ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ فيها مناسبة تربطها بممارسة الحب.

ولكن ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾. همت بيوسف، وهم بامرأة العزيز، فهل المراد من الحدث الذي تدل عليه هاتان الكلمتان هو ممارسة الحب، أو أن هناك حدثاً آخر، حدث بين يوسف عليه السلام وزليخا، تدل عليه هاتان الكلمتان؟

بمراجعة القرآن الكريم نجد أن كلمة (الهمّ) تكررت في القرآن للدلالة على الأحداث المقترنة بالخشونة والعنف كالقتال مثلاً وقطع اليد...

ففي الآية ١٢٢ من سورة عمران ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

وهم بنو سلمة من الأوس، وبنو حارثة من الخزرج. فقد صمّمت هاتان الطائفتان ـ في معركة أحد ـ الرجوع إلى المدينة وهمّتا بذلك،

فقد كانتا ممن يؤيّد فكرة البقاء في المدينة ومقاتلة الأعداء داخلها بدل الخروج منها، والقتال خارجها[١].

وفي الآية ١١ من سورة المائدة: ﴿... إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

وهذا المضمون ينطبق على وقائع متعددة وقعت بين الكفار والمسلمين كغزوات: بدر وأحد والأحزاب، وغير ذلك، فالظاهر أن المراد به مطلق ما همّ به المشركون من قتل المؤمنين وامحاء أثر الإسلام. ودين التوحيد[٢].

وفي الآية ١١٣ من سورة النساء: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

فالتدبّر يقرب أن القصة عن سرقة وقعت من بعضهم، ثم رجع الأمر إلى النبي ﷺ فرمى بها السارق غيره ممّن هو بريء منها، ثم ألحّ قوم السارق عليه ﷺ أن يقضي لهم، وبالغوا في أن يحرفوه ﷺ عن الحق[٣].

وفي الآية ٥ من سورة غافر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو

(١) الشيخ ناصر مكارم شيرازي: الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٢/١٦٧.
(٢) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ٥/٢٣٨.
(٣) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ٥/٧٢.

ٱلْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ * إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾.

وهؤلاء هم الأقوام الذين اجتمعوا ووقفوا ضدّ دعوات الأنبياء، لتعارض مصالحهم مع روح هذه الدعوات، ومضامينها. إنهم لم يقتنعوا بمجرد الوقوف ضد الدعوات النبوية الكريمة، بل خططت كل أمة منهم أن تمسك بنبيها فتؤذيه، بل تقتله[١].

وفي الآية ١٣ من سورة التوبة: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

تحريض للمؤمنين على قتال المشركين ببيان بعض ما أجرموا به في جنب الله[٢].

وفي ١٥٤ من سورة آل عمران: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

---

(١) الشيخ ناصر مكارم شيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٥/١٨٦.
(٢) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ٢٩/١٥٩.

الطائفة المنافقة في غزوة أحد. نظير ما وقع في أحد من فرارهم من الزحف وتوليهم عن القتال تحقق في غيره... فمحصل معنى الآية على ما فيها من سياق العتاب والتوبيخ أن محمداً ﷺ ليس إلاّ رسولاً من الله مثل سائر الرسل..»[١].

كل هذه الآيات المتقدمة والتي ورد فيها كلمة (الهم) نجدها استعملت في القتال والأفعال التي فيها نوع من الخشونة والعنف وإراقة الدماء: فإن دلالة (الهمّ) لا يتناسب مع محاسبة الحب.

يقول شيخنا الأستاذ الهرندي: (دام ظله): إذن، بحسب الظاهر أن ما يستفاد من كلمة (الهمّ) ـ مع قطع النظر عن موارد الاستعمال ـ أن متعلق (الهم) غير متعلق (المراودة). فهناك حدثان وقعا بين يوسف عليه السلام وامرأة العزيز.

١. المراودة.

٢. ما تشير إليه كلمة (الهمّ).

والدليل على أن (الهمّ) يشير إلى حدث آخر غير الحدث الأول (المراودة) والذي انتهى بقوله على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٢] فانتهى الأمر فكيف يعود مرة ثانية بعد اعتذاره عن الأمر.

ومن حقائق الأمور أن المرأة عندما تعرض نفسها على أحد،

---

(١) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ٤/ ٣٧.
(٢) سورة يوسف: الآية ٢٣.

ولا يستجيب لها، تشعر بالإهانة، وتقدم على الإنتقام من الرجل، فكيف ذلك والمرأة - هنا - تملك الجمال والمال والسلطان والرغبة الجامحة؟

وامرأة العزيز (زليخا) شخصية مهمة وامرأة ذات جمال غير طبيعي، تحتل أكبر موقع في المجتمع المصري. تعرض المرأة المهمة في موقعها نفسها على عبدٍ لها، - والعبد لا يعدّ مواطناً آنذاك في المجتمع المصري - فتدوس على شخصيتها وأنوثتها وجمالها وعلى كبريائها فيتنكر العبد لها. فتمتليء حقداً وغيضاً وتحاول أن تنتقم لشخصيتها ولأنوثتها التي داسها العبد بقدميه. والإنتقام عادة يكون بالهجوم على الطرف المقابل - سيدنا يوسف عليه السلام - لقتله، ويوسف عليه السلام يدافع عن نفسه - الحدث الثاني - ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾(١).

إذن هنا تحقق فعلان: سوء وفحشاء. السوء: هو القتل، والفحشاء: هو المراودة.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢).

وهنا اتهام ليوسف ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢٤.
(٢) سورة يوسف: الآية ٢٥.

إذن بحسب القرائة للآيات المباركة، وبالقراءة الخاصة لكلمة (المراودة) و (هيتَ) نستفيد المعنى المتقدم. حيث أن الحدث الأول وهو (المراودة) قد انتهى، وذلك بقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فاعترف بأن هذا ظلم فكيف يعود إليه ثانية.

فهناك مخالفتان:

مخالفة تصدر من العبد اتجاه مولاه.

ومخالفة تصدر من الرجل اتجاه المرأة الجميلة.

فتحركت لأن تنتقم منه، فهمّ بها وذلك للدفاع عن نفسه ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ فهرب يوسف عليه السلام فحاولت أن تلحق به لكي تغطي على جريمتها وفعلها الشنيء وعلى مطلبها الذي طلبته من يوسف عليه السلام ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾[1] فقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ ولم تقل فاحشة، فيظهر أن هناك فرقاً بين السوء والفحشاء. وفسرنا فيما تقدم السوء بالقتل فقالت أراد أن يقتلني. وبعد ذلك عندما وصل منه الإنكار وصل الدور إلى اثبات أن السبب أي سبب القتل هو المراودة.

والمحصلة: إن شيخنا الأستاذ (دام ظله): يرى أن قراءته للآيات المباركة أن هناك حدثان وليس حدثاً واحداً. ويدل على هذه القراءة ثلاثة قرائن:

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢٥.

١. انتهاء الحدث الأول بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾.

٢. هروبه عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾.

٣. قوله تعالى: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ فقالت (سوءً) ولم تقل (فاحشة) وفرق بين السوء والفحشاء.

وبعد كل هذا قال يوسف نعم كانت هناك مواجهة بيني وبينها ولكن هذه المواجهة هي تتمة لحدث سابق وهي (المراودة) قال تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[1].

النتيجة: ومن كل ما تقدم، نستفيد من ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ ليس الهم بارتكاب الفاحشة حتى يتصادم مع نبوة يوسف عليه السلام. لذا لا نوافق ـ حسب ما يرى شيخنا الأستاذ الهرندي (دام ظله) ـ ما يذهب إليه بعض المفسرين في تفسير الحدث بتفسير لا يليق وشخصية سيدنا يوسف عليه السلام والتي رسمتها الآيات المباركة.

هذه قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز، وهذه هي رحلتها معه، انتهت بالاعتراف بالإثم، وتبرئة يوسف ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢٦.

٤ ـ العزيز:

يتفاوت المفسرون في تحديد شخصية (العزيز) الذي اشترى يوسف هل هو الملك أم وزيره؟ وتبرز شخصية العزيز في ثلاث وقائع:

١. موقفه من يوسف في صراعه مع امرأة العزيز، ويتميّز بكونه صادراً عن شخصية ضعيفة، لا تستطيع حسم الأمور بقدر ما تنصاع لأوامر امرأة متحكمة، تستبد بها أهواؤها إلى الدرجة التي تفرضها على زوجها، بالرغم من معرفة زوجها ـ تماماً ـ بالمنكر الذي صدر من امرأته. ويتمثّل موقفه المتميّع هذا في انصياعه لأوامر امرأته بحبس يوسف على الرغم من معرفته ـ تماماً ـ ببراءة يوسف عليه السلام ونظافته من التهمة الموجّهة إليه.

٢. والموقف الثاني للعزيز هو رؤياه التي رآها عن البقرات والسنابل، ثم تفسير يوسف عليه السلام لهذه الرؤيا بواسطة أحد السجينين اللذين كانا مع يوسف حيث كان الذي نجا منهما قد تولّى مهمة التعريف بشخصية يوسف وقدرته على تأويل الأحلام. وفعلاً بعد أن فسّر يوسف عليه السلام لهذا الوسيط رؤيا الملك، استدعاه الملك، إلاّ أن يوسف عليه السلام قبل أن يواجه الملك شرط أن يحسم موضوع النسوة. قال للوسيط: ارجع إلى الملك، واسأله عن النسوة اللاتي قطّعن أيديهُنّ. وقد نفّذ الملك هذا الطلب، وسأل النسوة عن حقيقة الأمر، فأجنبه ببراءة يوسف، ممّا اضطر امرأة العزيز إلى الإقرار بدورها ببراءة يوسف عليه السلام.

٣. والموقف الثالث هو تعيين الملك ليوسف خازناً على الأرض. وهذه هي قمّة التقدير لشخصية يوسف عليه السلام والتكفير عن الخطأ السابق.

ثم أن النص التوراتي المقدس وصف العزيز ـ عزيز مصر ـ بأنه (خصي الملك) قال تعالى: «**وأما المديانيون فباعوه في مصر لفوطيفار خصيّ فرعون رئيس الشرط**»(١). ونفس الوصف ورد عن مسؤول شراب الملك وطعامه قال تعالى: «**وحدث بعد هذه الأمور أنّ ساقي ملك مصر والخبّاز أذنبا إلى سيدهما ملك مصر. فسخط فرعون على خصيّيه رئيس السقاة ورئيس الخبّازين. فوضعهما في حبس بيت رئيس الشرط في بيت السجن المكان الذي كان يوسفُ محبوساً فيه**»(٢). وهنا، يرد التساؤل وكما أورده البعض من المفسرين. أنه كيف يمكن أن تكون حاشية ملك مصر آنذاك كلهم من الخصيان؟

وفي الجواب: يقول شيخنا آية الله الهرندي (دام ظله).

إننا نعتقد عدم صحة ما ورد في التوراة المقدس. حيث أن الخصي كان يجعل في المكان الذي تعيش فيه زوجات الملك. فالذين يخدمون نساء وزوجات الملك هؤلاء كانوا من الخصي، وهناك مجموعة خاصة من الخدم هم الذين يحملون الشراب والطعام إلى داخل الحرم الملكي. أما الوزير فلا يمكن أن يخصى.

---

(١) الكتاب المقدس: الاصحاح السابع والثلاثون، الآية ٣٦.
(٢) الكتاب المقدس: الاصحاح الأربعون، الآيات ١ ـ ٤.

وهكذا المسؤول عن شراب الملك وطعامه لا يكون خصياً. والمسؤول الخاص هو المشرف على هؤلاء الخدم.

فما معنى الإخصاء لهؤلاء ـ الوزير والمسؤول الخاص عن شرابه وطعامه ـ؟

ثم أنه لم يكن معروفاً آنذاك الإخصاء في المجتمع المصري.

وأيضاً، أن المجتمع المصري آنذاك كان مجتمعاً منفتحاً، وكانت المرأة تظهر كاشفة لمعالم جسدها. ولم يكن مجتمعاً ملتزماً، وتشهد على ذلك الآثار الفنية والجداريات الباقية والرسوم على حيطان قصور الفراعنة.

وعليه، إننا نعتقد أن القراءة الصحيحة هي (خصيص الملك) أي المختص بالملك. والذين اختصهم الملك بالوزاراة لا (خصي الملك).، ومن اختاره الملك للوزارة يكون خصيصاً له، منسوب إلى الملك.

٥ ـ إصابة سيدنا يعقوب عليه السلام بالعمى

مما لا ريب فيه ولا شك أن النبي والرسول يجب أن يكون سليماً من كل الصفات الخلقية المنفّرة، والعاهات التي تجعله عاجزاً عن أداء رسالته، وتبليغها للناس وجذب الناس إليه والتفافهم حوله.

وفي ذلك يقول الشيخ سديد الدين في كتابه (المنقذ من الضلالة)[1]:

---

(١) ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟: المنقذ من الضلالة/ ١، ٤٣٨.

(ومن صفات النبي أن يكون متجنباً من الخلق المشينة والأمراض المنفّرة. وقد اختلفوا في تفصيل ذلك، فأجاز بعضهم العمى، والصم. وزعم أنهما لا ينفّران... إلاّ إذا كان ما يمنع من أداء الرسالة.

والصحيح أن العمى والصم أيضاً غير جائزين لما لهما من التنفير أيضاً... وإن كان التنفير فيهما دون التنفير في الجذام والبرص...).

قد يقال: أن النبي لا يحتاج إلى مبصر، فإنه يرى ويسمع بواسطة علمه الباطني.. وامكاناته ليست منحصرة بالحواس الباطنة.

نقول في الجواب: إذا اعتمد النبي على العلم الباطني دخل في دائرة الشبهة، فمن الذي يثبت أنه لم يتخذ موقفاً من أحد الطرفين من طريق إرشاده ومن طريق الإرتباط به ومن طريق الحب إليه.

إذن العمى يتنافى مع مقام النبوة، وكمالها، فعمى النبي يستوجب النفرة الإجتماعية. فلا يتمكن من الإرتباط المباشر بالناس، والإتصال بهم، ولابد ـ حينئذٍ ـ من وسيط بينه وبين الناس يساعده على معرفة الناس، والإتصال بهم، وحلّ قضاياهم. وهذه تتنافى مع الرسالة.

فهل أصيب يعقوب عليه السلام بالعمى، وهو نبي مرسل؟

يرى شيخنا الأستاذ الهرندي (دام ظله) أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾. أي ضعف بصره، لا أنه فقد بصره.

فعندما يبكي عليه السلام هذه المدة الطويلة، فإنه ـ بلا شك ـ يؤثر على

بصره فيضعفها، لا أن يفقد البصر. فعليه: لا تدل الآية الكريمة على عمى يعقوب عليه السلام وذهاب بصره، لأن ذلك ـ كما قلنا ـ يتنافى مع كمال النبوة.

ويرى شيخنا الأستاذ (دام ظله) في قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾[١]. فقوله: ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ المراد منه: أن يرتفع همّه وغمّه ويرجع بصره إلى ما كان عليه سابقاً... لأن ضعف البصر كان بسبب البكاء والهم والغم. فإذا توقف عن البكاء ارتفع الهم والغم، ومن جراءه يعود البصر.

وكذلك قوله: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾[٢] أي: عاد، ورجع بصيراً. ولا إشكال في أن سيدنا يعقوب عليه السلام كان عالماً بحياة يوسف عليه السلام ولكن الأنبياء عليهم السلام يعملون بحسب الإمارات الظاهرة لا بحسب علمهم الحقيقي.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾[٣]. المراد منه: استعملوا حواسكم. فالحاسّة تكفي لرؤية يوسف والحاسّة هنا البصيرة.

ويدل عليه ـ كما يرى شيخنا الأستاذ (دام ظله) ـ ما ورد في مقاييس اللغة: (بصر: الباء والصاد والراء أصلان أحدهما العلم به

---

(١) سورة يوسف: الآية ٩٣.
(٢) سورة يوسف: الآية ٩٦.
(٣) سورة يوسف: الآية ٨٧.

لشيء يقال هو بصير به. ومن هذه البصيرة.. وأصل ذلك كله وضوح الشيء)[1] أي وضوح في الرؤية.

وأمر آخر نضيفه وهو: أن يعقوب عليه السلام في بدء نبوّته كان سليماً معافى في بصره، فإن كان أصيب في بصره، فذلك أمرٌ عارض جاء نتيجة فراقه يوسف عليه السلام وبكائه عليه. والأمر العارض لابد من أن يزول بزوال سببه.

وهكذا فإن مجموعة من القرائن يمكن أن نستخلصها بالدليل على نفي العمى من يعقوب عليه السلام لأن العمى يتنافى مع النبوّة، وأن الكمال شرط من شروطها لأداء الرسالة الإلهية.

وقد يتساءل بعضهم: إن سيدنا يعقوب عليه السلام النبي إذا كان عالماً بمصير يوسف عليه السلام فلِمَ يبكي؟

يقول شيخنا الأستاذ الهرندي (دام ظله): إن النبي في تعاطيه، وتعامله مع الخارج يتعامل على مستوى الظواهر الإجتماعية، لا على مستوى ما يعلمه، فقد يكون عالماً، وبما أن الحدث استوجب المفارقة بينه وبين ولده، وهو منشدّ إليه بكل قوة عاطفية، فلا منافاة في ذلك، فهو يعلم: أين هو يوسف، ولكن يبكي على بعده عنه، وعلى انقطاع الصلة بينه وبين ولده.

فالبكاء ـ إذن ـ كان للجانب الإنساني ـ كما في بكاء

---

(١) أبو الحسن أحمد بن فارس زكريا: مقاييس اللغة/ ملدة: بصر، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤هـ.

رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم، فإن القلب ليحزن، وأن العين لتدمع ـ فهو عالم بما حدث وعالم بما سيحدث ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1].

٦ ـ السجود ليوسف عليه السلام:

ثم أن هناك اعتراضاً من بعضهم: كيف أن السجود كان ليوسف عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾[2]؟

وقد تصدى لهذا الجواب أستاذنا المعظم الشيخ الهرندي الهرندي (دام ظله) بقوله:

ولنا أن نقول ـ هنا ـ إن السجود كان لله سبحانه ولم يكن ليوسف عليه السلام، فقد كان السجود على التدبير الإلهي المعجز الذي انتظم قصّة يوسف: كيف ابتدأت، وكيف تكاملت، وكيف انتهت ـ بقدرة الله وحكمته ـ إلى وصول يوسف إلى أهم موقع في الدولة لكي يؤسّس لكلمة التوحيد وفكرته، فسجدوا جميعاً شكراً لله تبارك وتعالى على هذه النعمة التي اختصّ بها يوسف عليه السلام. فالسجود لم يكن ليوسف عليه السلام وإنما كان سجوداً لله سبحانه ليتناغم مع عبوديتهم

---

(١) سورة يوسف: الآية ٩٦.

(٢) سورة يوسف: الآيتان ٩٩ ـ ١٠٠.

لله سبحانه وهذا السجود كسجود الملائكة لآدم عليه السلام فلم يكن سجوداً له، بل كان سجوداً لله تبارك وتعالى.

إذن، من قراءتنا لسورة يوسف عليه السلام استكشفنا عدة أمور كان من أهمها:

حكمة خروج يوسف عليه السلام من كنعان إلى مصر، ولقاؤه عليه السلام مع الملك الموحّد (أخناتون)، ثم رسالة التوحيد التي حملها معه إلى مصر لدعم ذلك الملك المصري الموحد، الذي زرع بذرة التوحيد في أرض مصر والتي أصبحت مهيأة وممهدة لرسالة موسى النبي عليه السلام التوحيدية، وهي أوّل رسالة سماوية متكاملة، اعقبتها رسائل أخرى، وكان خاتمتها الإسلام دين الله الخاتم في الأرض.



البحث السابع
العِبر والدروس التي نستخلصها من قصة يوسف عليه السلام

إن الدروس والعِبر والعظات التي نستخلصها من قصة يوسف عليه السلام كثيرة ـ وهي تحقق الأهداف من إيرادها ـ أهمها:

١. إن المتحمّل لمسؤولية الدعوة إلى الحق والخير، يقوم بهذه المسؤولية بكل كيانه، ويغتنم كل الفرص لأدائها، فلا يقعد به غمّ، أو ضيق، أو شدّة عن القيام بها، كما لا تلهيه عنها شؤونه الدنيوية، فالصدّيق يوسف عليه السلام نهض بمهماته الرسالية، وأعباء الدعوة إلى الله، وهو في السجن، ونهض بها، وهو يُمسك بزمام الأمور ويعتلي عرش المُلك. وكان عليه السلام مبلّغاً ناطقاً بالكلمة الطيّبة الصادقة المؤثرة المعزّزة بالبرهان، وكان داعيةً صامتاً بسيرته وسلوكه في زمن سادت فيه القيم المادية الزائفة، وانحسرت فيه معاني الشرف، والفضيلة والكرامة.

٢. إن المؤمن بعقيدته، الوثيق الصلة بربه، يظل ملتزماً بمواقفه ومبادئه، وقيمه الإلهية في كل الظروف والأوضاع: في الشدّة

والرخاء والعسر واليسر، وعند إدبار الدنيا عنه، أو إقبالها عليه. وكان يوسف عليه السلام مثلاً أعلى لهذا الإلتزام الواعي، فلم تصرعه شهوة، أو يذلّه طمع، ولم يُطغه غنىً أو جاه، وقوة، ولم تزلزله نكبة، أو تبطره نعمة، وقد تقلبت به الأحوال، فلم تختلف حالاته في أي منها.

٣. إن صاحب الأهداف الإلهية وإن كان يبدي الكثير من المرونة في التعامل الإجتماعي، ويتسامى عن فعل الكثير من الممارسات الخاطئة في حقّه، ويحلم، ويكظم غيظه في الموارد التي يساء فيها إليه، إلاّ أن ذلك لا يمنعه من اتخاذ مواقف حازمة، وممارسات صارمة من أجل إنجاز الأهداف التي تفرضها المصلحة الرسالية، والقيم الإيمانية، وعدم إبداء أي نوع من التساهل أو التراجع تحت ضغط العاطفة والإحساس الرهيف، أو سائر الضغوط. والصدّيق يوسف عليه السلام قد تعرض لمحن قاسية، فلم يكن ردّ فعله على إساءات اخوته ـ مثلاً ـ سلبياً انتقامياً، بل كان مرناً، بما يحقّق أهداف رسالته. كما أنه لم يقبل أن يذهب إلى الملك فرحاً بخروجه من السجن إلى بلاط الملك مباشرة بدون أن يحسم أمر سمعته ونظافة سيرته على الرغم من الإغراء الكبير الذي يمثله طلب الملك بالمثول بين يديه.

٤. قد يتصور الإنسان أنه يمتلك من الإرادة والعزيمة ما يجعله قادراً على تجنّب ممارسة بعض الأعمال غير اللائقة، فيقوم بتعبير من يمارسها، ويصفهم بكل قبيح، ولكنّه عندما يقع في بوتقة

الإختبار، يفشل ويسقط إذ يرتكب تلك الأعمال، ويلقى المصير الذي لقيه من عاتبهم، وأزرى عليهم.

وفي هذه القصة نجد أن نسوة مصر كنّ يلمن امرأة العزيز في مراودة فتاها، ويندّدن بعملها، ويصفنها بأنها في ضلال مبين، ولكنهنّ لما واجهن ما واجهت تلك المرأة، وقعن في المصيدة ذاتها التي وقعت فيها، فقطّعن أيديهن بمجرد رؤيته، وطارت عقولهنّ لجماله. ومن هنا ينبغي التريّث، وعدم التسرّع في نقد الآخرين، والطعن عليهم.

٥. إن الله تبارك وتعالى إذا شاء ـ لحكمة ما ـ أن يدفع إنساناً، ويعلي مكانته، فإنّ مشيئته سبحانه عالية، لا رادّ لها، إذ يهيّء له الأسباب التي ترتقي به إلى أسمى المقامات، ويمدّه بلطفه وعنايته. وهذا النبي يوسف عليه السلام قد نُبذ في البئر، وأقام في بيت العزيز عبداً رقيقاً، ثم زُجّ في السجن بضع سنين، ولكنّه غدا ـ بعد كل ذلك ـ عزيز مصر، وسيّدها، وموئِل الناس، وأملهم المرجّى... كل ذلك بعناية الله جلّ شأنه وفضله العميم، ومواهبه الجزيلة.

٦. إن اللجوء إلى أساليب غير نزيهة، واعتماد طرق ملتوية للوصول إلى مآرب، وغايات معيّنة، يضرّ الفرد ولا ينفعه، ويفتح عليه نوافذ الشر من حيث لا يحتسب. فأولاد يعقوب عليه السلام قد نسجوا مؤامرة دنيئة ضد أخيهم غير الشقيق يوسف عليه السلام وآذوا أخاهم الآخر شقيق يوسف (بنيامين)، وتوسّلوا بالأباطيل للوصول إلى هذه الغاية: الإستئثار بحبّ أبيهم وعطفه ولكنّهم ـ ليس فقط ـ لم يبلغوا مآربهم،

بل ابتعدوا عنه كثيراً، وارتدّ إليهم مكرهم، فقدوا ثقة والدهم بهم، وأصبحوا موضع شكّه، واتهامه، وجنوا من وراء ذلك ثماراً مرّة، نغصّت عليهم طعم الحياة.

٧. إن أصحاب الرسالات الإلهية يستطيعون بمواهبهم وقدراتهم وبوحي من رسالاتهم قيادة المجتمع نحو الأرقى والأفضل في مختلف مجالات الحياة المادية، وحلّ أزماته ومشاكله وفق تخطيط دقيق، وحكمة ودراية، وعلى أسس العدل والخير والفضيلة، وذلك من خلال النموذج الذي يمثلونه والنمط الذي يقدمونه والقيم الأخلاقية التي يكرسونها ليقتدي بها الناس في حياتهم وتشكل عناصر تطور المجتمعات ورقيها.

إنهم يستطيعون ذلك تماماً كاستطاعتهم في قيادة المجتمع وتوجيهه في المجالات الروحية والمعنوية. ولا ريب في أن المجتمع إذا استكمل هذين البعدين: المادي والروحي، فإنه سيعيش في رخاء وسعادة وهناء وفي سموّ، ورفعة وكرامة، وفي هذه القصة أبدى يوسف عليه السلام من المواهب والقابليات ما جعله محطّ أنظار الملك وحاشيته لإنقاذ البلاد من التردّي في هوّة الفقر، والحاجة إلى سنين الجدب والقحط واستحصال الازمة الإقتصادية.

٨. إن الحوادث التي مر بها يوسف عليه السلام خلال حياته وإن كانت بظاهرها مؤلمة وحزينة، لكنه جنى منها ثماراً حلوة، انتهت إلى بلوغه درجة عالية من الكمال، وصار مظهراً لإرادته ومشيئته سبحانه، ومن مصاديق ذلك: أنه عليه السلام بعث بقميصه إلى أبيه

يعقوب عليه السلام ليعيد إليه بصره الذي فقده حزناً وكمداً على فراقه، فلما ألقاه البشير على وجهه ارتدّ بصيراً. وهذا يشير إلى أن المحن والفتن هي الطريق الذي يبلغ به الإنسان ذروة الكمال.

٩. إن الحب النابع من الغريزة الحيوانية لا يثبت أمام القيود الإجتماعية والعلاقات الشخصية، وربّما ينسى المحبُّ غرامَهُ ولوعته إذا كان الثبات عليه سبباً للتهمة، وربّما يسعى لإلصاقها بحبيبه ليتخلّص هو من تبعاتها وهذا ما رأيناه عند امرأة العزيز عندما خاطبت زوجها ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

وأما الحبّ النابع عن صفاء النفس، والميل إلى الكمال المطلق الذي ليس فوقه كمال، فيدفع صاحبه إلى العكوف والثبات عليه وإن كلّفه ذلك دفع ثمن غال، واحتمال المشقة والعنت. ولهذا نرى أن يوسف عليه السلام رجّح السجن طواعية ورغبة في سبيل حفظ نفسه، وصدّها عن مخالفة مولاه الجليل.

١٠. من صفات المؤمن أن يدفع عن حيثيته وسمعته السوء كما يدفع عن نفسه الأخطار المادية، فلا يساوم بها بأي شيء غالٍ، لأنه يراها من أغنى الأشياء عنده وإن استدعى حفظها البقاء في السجن والعذاب، وعلى هذا الأساس نرى أن يوسف عليه السلام عندما أبلغه الرسول طلب الملك أن يخرج من السجن ويلتحق ببلاطه، رفض

(١) سورة يوسف: الآية ٢٥.

هذا الطلب حتى يتبيّن البريء من المجرم في القضية التي زجّ بسببها في السجن وبذلك أعاد النظر في هذه القضية، فثبتت نزاهته حتى اعترفت بها امرأة العزيز نفسها، والنساء اللواتي كنّ معها: ﴿قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[1] وعند ذلك طاب له الخروج من السجن.

والحقُّ أن قصة يوسف عليه السلام كلها عبر ودروس وتجارب لمن أراد أن يعتبر ويستفيد ولمن ألقى السمع وهو شهيد.

والنتيجة التي يمكن اختصار عناصر الفن القصصي في قصة يوسف عليه السلام: هي أن الذروة الدرامية في القصة تتصاعد من خلال حبكة عميقة ومتصاعدة تبدأ بحادثة التخلص من يوسف عليه السلام بإلقائه في البئر والإدعاء بأن الذئب قد أكله فتكون هذه الحبكة قد طالت يوسف عليه السلام نفسه من جهة وهو حبيس البئر يواجه مصيراً مجهولاً ومن جهة أخرى طالت أباه الذي افتقده وحزن عليه وصار يبكي تفجعاً رغم علمه أن قصة الذئب ملفقة لكن غياب يوسف عليه السلام كان واقعاً. فضلاً عن ذلك يتحول يوسف عليه السلام من إنسان حر إلى عبد يباع إذ يفقد حريته جراء فعل اخوته وهذه ذروة أخرى في القصة التي تبدأ تتابع تحول الرؤيا إلى مراحل ويكون تحذير يعقوب عليه السلام بدون فائدة رغم أن يوسف عليه السلام لم يقص الرؤيا على إخوته لكنهم كادوا له بسبب موقعه من أبيهم وليس بسبب الرؤيا.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٥١.

تقود الأقدار هذا الصبي الذي بيع واستعبد إلى موقع الحكم في بلاد أخرى بعيدة هي مصر، فيكون عامل الغربة هو الآخر ذروة درامية لصبي غريب تحول إلى مسلوب الحرية لكن إرادته لم تسلب.

وتكشف القصة ذروة درامية أخرى فهذا العبد الشاب الجميل لم يخضع كما يخضع الخدم والعبيد عادة لرغبات أسيادهم ذكوراً كانوا أم إناثاً، وأكثر من ذلك يكلفه عدم الخضوع هذا إلى السجن وهذه مفارقة فنية عميقة في الذروة الدرامية.

وهكذا يكون كل حدث جديد يدخل في تطور القصة ذروة جديدة بحيث تبدو القصة عملاً حديثاً يملك مقومات العرض على المسرح لأنه سيناريو متكامل إعجازي مفعم بالوظائف الفنية الجميلة من وصف وحوار وانتقالات ورسم الشخصيات وتصاعد التوتر الدرامي.

إنها نموذج متكامل لعمل إلهي جاء على شكل قصصي.



مصادر الكتاب

١ : القرآن الكريم

٢ : نهج البلاغة

٣ : الأدب العام المقارن: دانييل هنري باجو، ترجمة: د. غسان السيد.

٤ : الأساطير دراسة حضارية مقارنة: الدكتور أحمد كمال زكي، دار العودة - بيروت ١٩٧٩م.

٥ : الأسطورة: الدكتورة نبيلة إبراهيم.

٦ : الأسطورة والمعنى: كلود ليفي شتراوس، ترجمة: شاكر عبد الحميد

٧ : بحوث في قصص القرآن: عبد الحافظ عبد ربه، دار الكتاب اللبناني - بيروت، ١٩٧٢م.

٨ : بداية الفلسفة الإسلامية: السيد إبراهيم الموسوي الزنجاني، مؤسسة الوفاء - بيروت لبنان، ١٩٨٢م.

٩ : تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت.

١٠: تاريخ الأسطورة: كارين أرمسترونغ، ترجمة: الدكتور وجيه قانصو، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم.

١١: جذور القصة في الأدب العربي: الدكتور فاضل والي، الموقع الألكتروني www.adabihail.com.

١٢: حي بن يقظان: تحقيق وتعليق: أحمد أمين، مؤسسة الخانجي، ١٩٥٨م.

١٣: خمسة مداخل إلى النقد الأدبي: ويلبرس سكوت، تحقيق: الدكتور عناد غزوان وجعفر صادق الخليلي.

١٤: الدولة والأسطورة: ارنست كاسيرر.

١٥: رسالة الغفران: أبو العلاء المعري، دار صادر ـ بيروت.

١٦: شخصيات قلقة في الإسلام: ترجمة: الدكتور عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٦م.

١٧: الصوت المنفرد: اوكونور ـ فرانك، ترجمة: الدكتور محمود الربيعي، نشر الهيئة المصرية العامة للطباعة والنشر ـ القاهرة، ١٩٦٩م.

١٨: الفن القصصي في القرآن الكريم: محمد أحمد خلف الله، مؤسسة الانتشار العربي.

١٩: في طريق الميثولوجيا عند العرب: محمود سليم الحوت.

٢٠: قصة الحضارة: دل وايريل ديورانت، ترجمة: محي بدران، الشرق الأدنى ـ بيروت.

٢١: القصة في القرآن الكريم: رضوان عبد الله.

٢٢: قصص العرب: المكتبة المصرية، بيروت ـ صيدا ١٩٨٧م.

٢٣: القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي: الدكتور محمود البستاني، مؤسسة الطبع والنشر في الاستانة الرضوية المقدسة، ١٤١٤هـ.

٢٤: الكشكول: الشيخ بهاء الدين العاملي، دار الزهراء، بيروت ـ لبنان، ١٩٨٢م.

٢٥: مدخل إلى الأدب الإسلامي: الدكتور نجيب الكيلاني.

٢٦: مروج الذهب: على بن الحسين ابن علي المسعودي، المكتبة الإسلامية ـ بيروت.

٢٧: مضمون الأسطورة في الفكر العربي: الدكتور خليل أحمد خليل، بيروت، دار الطليعة والنشر، ١٩٧٣م.

٢٨: معالم الفلسفة الإسلامية: الشبخ محمد جواد مغنية، مكتبة الهلال.

٢٩: مغامرة العقل الأولى: فراس السواح.

٣٠: من الأسطورة إلى الفلسفة والعلم: ثامر مهدي.

٣١: منطق المعرفة العلمية: ياسين خليل، منشورات الجامعة الليبية.

٣٢: الميزان في تفسير القرآن: السيد محمد حسين الطباطبائي،

منشورات: جماعة المدرسين في الحوزة العلمية ـ قم المقدسة.

٣٣: نهج البلاغة: شرح الأستاذ محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان.

٣٤: وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة: الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.

الفهرس



القصة القرآنية

السيد حسن بحر العلوم

تشكل القصة القرانية احد اهم الروافد لمعرفة الرسالات السماوية والانبياء عليهم السلام وتجسيد التاريخ وعبره العميقة وكفاح الانبياء وحياتهم والمشاق التي تحملوها من اجل تبليغ رسالاتهم.

كما انها تكشف القيم الاخلاقية التي وضعها الله في انبيائه ومنهم النبي يوسف عليه السلام الذي عانى من اخوته وحسدهم له الامر الذي يكشف الطبيعة البشرية والمشاعر التي تنتابها وتقود تصرفاتها مثلما تكشف عمق الامل الانساني لدى النبي يعقوب الذي ظل ينتظر لقاء ابنه ومعرفة مصيره المموه من قبل اخوته.

والمؤلف السيد حسن بحر العلوم اضاف للمكتبة الاسلامية عددا مهما من الكتب التي الفها في موضوعات معاصرة مثل المجتمع المدني في الاسلام والتعددية في الاسلام والعنف والديمقراطية والدين وغيرها من مؤلفات دللت على جهد ومثابرة وعلى استيعاب عميق للموضوعات الاكثر اثارة في عالمنا المعاصر.



9789953574394



www.alaref.net